ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ
وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم
بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ (القرآن الحكيم)

الدّاعي

مجلة عربية إسلامية شهرية
تصدر عن الجامعة الإسلامية : دارالعلوم
ديوبند ، يوبي ، الهند

ISSN 2347-8950

العـــــدد : ٥ ، السنـــــة : ٤٨

جمادى الأولى ١٤٤٥هـ ، نوفمبر – ديسمبر ٢٠٢٣م

تحت إشراف

فضيلة الشيخ أبوالقاسم النعماني
رئيس الجامعة

رئيس التحرير

محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري
الأستاذ بالجامعة

الاشتراكات

- ثمن النسخة: ٣٠ روبية هندية

قيمة الاشتراك السنوي

- في الهند : ٣٠٠ روبية هندية
- وفي خارج الهند للأفراد : ٦٠ دولارًا
- وللمؤسسات الحكومية : ٨٠ دولارًا

عنوان المجلة على الانترنت
Web : https://darululoom-deoband.com/arabicmagazine

طالعها الآن

البريد الالكتروني
E-mail : info@darululoom-deoband.com

المراسلات

رئيس التحرير مجلة الداعي
دارالعلوم ، ديوبند ، يوبي (الهند)
الرمز البريدي ٢٤٧٥٥٤

Chief Editor
AL – DAIE
Arabic Islamic Monthly
Darul – Uloom,
Deoband – 247554
(U.P.) INDIA

الهاتف والفاكس
Ph. : (00-91-1336) 222429
Fax : (00-91-1336) 222768

المواد التي تنشرها المجلة تعبر عن وجهة نظر كاتبيها و لا تعبّر – بالضرورة – عن رأي المجلة

المحتويات

كلمة المحرر

♦ ما أحوجنا إلى لملمة البيت الداخلي	التحرير	٣

كلمة العدد

♦ أنتم أعلم بأمور دنياكم	محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري	٤

الفكـر الإسلامي

♦ من ظلال التفسير	العلامة الشيخ شبير أحمد العثماني الديوبندي رحمه الله	٩

دراسات إسلامية

♦ القيم وأثرها في نفوس الأفراد والجماعات	الأستاذ محمد رجاء حنفي	١٣
♦ من تاريخ الجامعة الإسلامية: دارالعلوم/ديوبند	الأستاذ سيد محبوب الرضوي الديوبندي رحمه الله	٢٠
♦ التاجر القدوة	الأستاذ رشيد ناجي الحسن	٢٥
♦ النميمة بين الاسترسال.. والاستئصال	الدكتور محمود محمد عمارة	٢٩
♦ حروف المعاني	الدكتور عبد العزيز بن عبد الله العمار حفظه الله	٤٠
♦ أدب الرحلة في العصور القديمة	الأستاذ محمد نوشاد النوري القاسمي	٤٨

إشـراقـــــة

♦ مرةً عيشٌ ومرةً جيشٌ	أبو عائض القاسمي المباركفوري	٥٦

كلمة المحرر

ما أحوجنا إلى لملمة البيت الداخلي

في الوقت الذي تعاني الأمة الإسلامية في أقصى الأرض وأدناها ويلات ونكبات ومضايقات و عقبات في طريق العمل بدينها، والاحتذاء بحذو نبيها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويواصل أعداء الإسلام تألبهم وتكالبهم عليها من كل حدب وصوب، نجد البيت الداخلي للأمة الإسلامية أشد تعرضًا لانعكاساتها المحلية والدولية على شتى المستويات والأصعدة.

يمر البيت المسلم بأشد مراحله حرجًا وضيقًا بعد أن غزاه الفكر الأجنبي الشرقي والغربي حين وجد الباب مفتوحًا على مصراعيه، فولج وأوغل فيه، من غير هياب ولا وجل، وفي أمن من الرقابة الأبوية والأخوية، التي كانت تشكل أكبر حاجز وأمنع جدار دون توغله في أغواره.

ويشهد البيت المسلم وضعًا رهيبًا من التقاطع، والتنابز، والتدابر، والتنافر، والتخاذل، والعض على سفاسف الأمور والبدع والتقاليد والأعراف غير الإسلامية بالنواجذ، والتخلي عن أسباب الوحدة و التناغم والانسجام؛ كل ذلك صار بالأمة الإسلامية إلى ما صارت إليه. إن سيلا من شباب الأمة و شاباتها تقذف بهم أمواج الحياة في مساربها على غير هدى، يتسكعون في الطرقات والشوارع من غير معالم تهديهم إلى الهدف، ومن غير شموع تبدد غياهب الظلام، فاختلط عليهم الحابل بالنابل، فظنوا السراب ماء، وكلَّ سوداء تمرة، وكل بيضاء شحمة.

إن المسلمين اليوم في حاجة إلى إعادة ترتيب الأوراق، ولملمة البيت الداخلي، أشد من أي وقت مضى، وكذلك إلى القيام بعملية تربوية متكاملة تشمل جميع جوانب الحياة من عبادات ومعاملات وأخلاق.

وإن هذا التغيير الملحّ الذي يحتاج إليه المسلمون اليوم يجب أن يبدأ به كل أحد من بيته الداخلي: بأبنائه وإخوته، وقرابته، وعشيرته الأقربين. وأجمع المؤرخون وأهل السير على أن خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كانت أول من آمن من النساء، آمنت لا عن عاطفة ؛ بل عن تصديق وبصيرة ويقين. إذًا كانت خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أول من بلغه دعوة النبي ﷺ.

وأُمِر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالدعوة إلى الإسلام ونزل قوله تعالى: (وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ) فقام على الصفا فدعا قريشا فجعل ينادي: يا بني فهر، يا بني عدي، لبطون قريش حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا لينظر ما هو؟ فقال: يا معشر قريش، فعم وخص، يا بني كعب بن لؤي أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني مرة بن كعب أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد شمس أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار، اشتروا أنفسكم من الله، لا أغني عنكم من الله شيئًا، يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئًا، يا صفية عمة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئًا، يا فاطمة بنت رسول الله سليني من مالي ما شئت لا أغني عنك من الله شيئًا، غير أن لكم رحمًا سأبلها ببلالها».

[التحرير]

(تحريرا في الساعة الثامنة صباحا من يوم الثلاثاء: ١٠/ربيع الأول ١٤٤٥هـ= ٢٦/سبتمبر٢٠٢٣م).

أنتم أعلم بأمور دنياكم

«جاء الرسول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ليوجه البشرية في أمور دينها دون دنياها.

الحديث النبوي حجة شرعية في الأمور الدينية دون الأمور الدنيوية.

الإنسان المسلم حر في أمر دنياه يفعل فيه كيف يشاء.

الدين لله، والدنيا للبشر يتصرف فيها كيف يشاء من تحليل ما شاء له الهوى، وتحريم ما أملاه عليه عقله وفهمه.

دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله».

هذه بعض ما يلوكه كثير من المغرضين الذين يريدون أن يقصوا شطرًا كبيرًا من الأحكام الإسلامية عن واقع حياة المسلمين كما أقصوا الشريعة الإسلامية عن الحكم والسلطة في كثير من البلاد التي تسمي نفسها دولة إسلامية، ويريدون أن يؤمنوا ببعض الشريعة ويكفروا ببعض، فيقبلوا من الحديث ما وافق أهواءهم وأطماعهم، ويردوا منه ما خالف ذلك دون الاستناد إلى صحيح العلم أو صريح النقل. وهؤلاء لا يهمهم إلا هوى أنفسهم، وإشباع غرائزهم، ويريدون أن يفرقوا بين توجيهات النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في أمور الدين، وتوجيهاته في أمور الدنيا، زعمًا منهم أن الشرع الإسلامي أوجب على المسلم الخضوع لأحكام الشريعة في أمر الدين، وأما ما يرجع إلى الدنيا فهو حر طليق فيه، وعبد هواه ونفسه. ويتعللون في ذلك بشطر من حديث طويل له ألفاظ مختلفة في كتب الحديث مروية عن عدد من الصحابة. وكأن هؤلاء يرون أن الله تعالى لم ينزل شريعته على عباده إلا لهدايتهم في أمر دينهم، وأما أمر دنياهم فقد تركهم فيه هَملا، وهم لا يُسألون.

والناظر في الحديث يتجلى له بكل وضوح أن المعنى الذي حملوا عليه هذا الشطر من الحديث لا صلة له بالواقع، وبما فهمه الصحابة رضي الله عنهم. ولم يفهم الصحابة رضي الله عنهم – وهم أول من خوطبوا بالقرآن والسنة– ما فهمه هؤلاء الذين جاؤوا بعدهم بقرون من تعميمه واعتباره قاعدةً كليةً تخول لهم التحرر من أحكام الشريعة في أمور الدنيا؛ وإذا كانت ثمة جملة واحدة – وهي أنتم أعلم بأمور دنياكم – استقوا منها الحرية المزعومة في أمور الدنيا فإن ثمة آلاف الأحاديث

التي تنافي هذه الحرية التي تسولهم نفوسهم.

ولم يفهم الصحابة رضي الله عنهم هذا الفهم الخاطئ الذي فهموه – من الأحاديث النبوية فتقرأ في كتب الحديث والسير مئات الروايات التي تفيد بأن الصحابة كانوا يرون اتباع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والتأسي بأقواله وأفعاله واجبًا في الأمور الدنيوية وجوبَه في الأمور الدينية، وأن الشريعة الإسلامية – المتمثلة في الوحي المتلو وغير المتلو الذي يسمى الحديث النبوي– توجب على المسلم الخضوع لها في أمر الدنيا وأمر الدين على حد سواء، ومن الأدلة على ذلك:

١– روى الترمذي في سننه عن سليم بن عامر، يقول: كان بين معاوية وبين أهل الروم عهد، وكان يسير في بلادهم، حتى إذا انقضى العهد أغار عليهم، فإذا رجل على دابة أو على فرس، وهو يقول: الله أكبر ، وفاء لا غدر، وإذا هو عمرو بن عبسة، فسأله معاوية عن ذلك، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من كان بينه وبين قوم عهد فلا يحلن عهدًا، ولا يشدنه حتى يمضي أمده أو ينبذ إليهم على سواء»، قال: فرجع معاوية بالناس. قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح[١٥٨٠].

٢– وصح عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: لعن الله الواشمات، والمستوشمات، و المتنمِّصات، والمتفلِّجات للحُسْن المغيِّرات خلقَ الله، قال: فبلغ امرأةً في البيت، يقال لها: أم يعقوب، فجاءت إليه، فقالت: بلغني أنك قلتَ كيت وكيتَ؟، فقال: ما لي لا ألعن من لَعَنَ رسول الله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– في كتاب الله عز وجل؟!، فقالت: إني لأقرأ ما بين لَوْحَيْه فما وجدتُه، فقال: إن كنتِ قرأتيه فقد وجدتيه، أما قرأت ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾؟، قالت: بلى، قال: فإن النبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– نهى عنه، قالت: إني لأظنُّ أهلَك يفعلون!، قال: اذهبي فانظري، فنظرتْ، فلم تَر من حاجتها شيئًا، فجاءت فقالتْ: ما رأيتُ شيئًا. قال: لو كانتْ كذلك لم تُجَامعْنَا [مسند أحمد: ٤١٢٩].

٣– ما روى البخاري، ومسلم أن الزبير – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– كان يحدث: أنه خاصم رجلًا من الأنصار قد شهد بدرًا إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في شراج من الحرة كانا يسقيان به كلاهما، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للزبير: اسق يا زبير، ثم أرسل إلى جارك ، فغضب الأنصاري، فقال: يا رسول الله، أن كان ابن عمتك؟ فتلون وجه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم قال: اسق، ثم احبس حتى يبلغ الجدر. فاستوعى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حينئذ حقه للزبير، وكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل ذلك أشار على الزبير برأي سعة له، وللأنصاري، فلما أحفظ الأنصاري رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ استوعى للزبير حقه في صريح الحكم. قال عروة: قال الزبير: والله ما أحسب هذه

الآية نزلت إلا في ذلك: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء:٦٥]

وأما الذي استدلوا به على التمييز بين أمور الدنيا وأمور الدين فهو شطر من حديث جاء فيه «أنتم أعلم بأمور دنياكم». وهو في الواقع بعيد عما استدلوا عليه به بعدَ ما بين الشرق والغرب؛ فإن الحديث ليس معناه ما فهموه؛ فإن النبي ﷺ لم يقل ذلك على أنه وحي من الله تعالى، وإنما قاله على الظن والتخمين والرأي والمشورة في أمر من أمور الدنيا. ولايعني ذلك أن ما قاله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أمر الدنيا كله يخرج عن نطاق التشريع سواء قاله وحيا أو اجتهادًا وصوبه الوحي، أو كان عن الظن والتخمين والرأي والمشورة.

ساق العالم الهندي الشهير الشيخ أشرف علي التهانوي رحمه الله ما رواه مسلم[٢٣٦٢] عن رافع ابن خديج، قال: قدم نبي الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المدينة، وهم يؤبرون النخل، يقولون: يلقحون النخل، فقال: «ما تصنعون؟» قالوا:كنا نصنعه، قال: «لعلكم لو لم تفعلوا كان خيرًا»، فتركوه، فنفضت أو فنقصت، قال: فذكروا ذلك له فقال: «إنما أنا بشر، إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به، وإذا أمرتكم بشيء من رأيي، فإنما أنا بشر». وفي رواية عن أنس وعائشة قال: «أنتم أعلم بأمور دنياكم». «فليتأمل القراء في كلمة (لعل) حيث إنها لاتجيء لتحريم فعل أو إيجابه، مما يدل – بوضوح- على أنه ﷺ لم يرد منذ البداية النهي القاطع عن التأبير، وإلا فإنه لكان قد استخدم التأكيد مثل التأكيد الذي استخدمه في تحريم الذهب والحرير: «أحرم لباس الحرير و الذهب على ذكور أمتي» (الترمذي). وإنما أراد أن يدلي في ذلك برأيه ومشورته، وأشار إلى أن ترك التأبير ربما يكون أحسن من ممارسته، ولما شاهد نقص الثمار من تركه سحب رأيه، ولو أصر ﷺ على رأيه رغم نقص الثمار، لثبت أن النهي هو المطلوب على كل حال، وأن التأبير محرم» (الإسلام والعقلانية، ص٢٨١).

وروى مسلم في صحيحه حديث تأبير النخل عن أنس -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: «أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مرّ بقوم يلقحون، فقال: لو لم تفعلوا لصلح، قال: فخرج شيصًا، فمرّ بهم، فقال: ما لنخلكم؟ قالوا: قلت كذا وكذا، قال: أنتم أعلم بأمر دنياكم».

وقد ترجم عليه النووي بقوله: «باب وجوب امتثال ما قاله شرعًا دون ما ذكره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من معايش الدنيا على سبيل الرأي».

فقوله: «على سبيل الرأي» صريح في أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد يتكلم في بعض أمور الدنيا على سبيل الرأي والمشورة والظن لا القطع واليقين. ويدل عليه أيضًا الرواية الأخرى في صحيح مسلم: «ما أظن يغني ذلك شيئًا» قال: فأخبروا بذلك فتركوه، فأخبر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذلك فقال: «إن كان ينفعهم ذلك فليصنعوه، فإني إنما

ظننـت ظنًّـا، فـلا تؤاخـذوني بـالظن، ولكـن إذا حدثتكم عن الله شيئًا، فخذوا به، فإني لن أكذب على الله عز وجل» [صحيح مسلم:٢٣٦٢].

وقال الشيخ أحمد شاكر رحمه الله: «وهذا الحديث مما طنطن به ملحدو مصر وصنائع أوربا فيها، من عبيد المستشرقين، وتلامذة المبشرين، فجعلوه أصلا يحِجُّون به أهل السنة وأنصارها، وخدام الشريعة و حماتها، إذا أرادوا أن ينفوا شيئًا من السنة، وأن ينكروا شريعة من شرائع الإسلام، في المعاملات وشؤون الاجتماع وغيرها، يزعمون أن هذه من شؤون الدنيا، يتمسكون برواية أنس: «أنتم أعلم بأمر دنياكم والله يعلم أنهم لا يؤمنون بأصل الدين، ولا بالألوهية، ولا بالرسالة، ولا يصدقون القرآن، في قرارة نفوسهم، ومن آمن منهم فإنما يؤمن لسانه ظاهرا، ويؤمن قلبه بما يخيل إليه، لا عن ثقة و طمأنينة، ولكن تقليدًا وخشية، فإذا ما جد الجد، وتعارضت الشريعة، الكتاب والسنة، مع ما درسوا في مصر أو في أوربة، لم يترددوا في المفاضلة، ولم يحجموا عن الاختيار، فضَّلوا ما أخذوه عن سادتهم، واختاروا ما أُشْرِبَتْه قلوبهم! ثم ينسبون نفوسهم بعد ذلك، أو ينسبهم الناس إلى الإسلام!! والحديث واضح صريح، لا يعارض نصًّا، ولا يدل على عدم الاحتجاج بالسنة في كل شأن، لأن رسول الله لا ينطق عن الهوى، فكل ما جاء عنه فهو شرع وتشريع ﴿وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾، وإنما كان في قصة تلقيح النخل أن قال لهم: «ما أظن ذلك يغني شيئًا» فهو لم يأمر ولم ينه، ولم يخبر عن الله، ولم يسن في ذلك سنة، حتى يُتوسع في هذا المعنى إلى ما يُهدم به أصل التشريع؛ بل ظن، ثم اعتذر عن ظنه، قال: «فلا تؤاخذوني بالظن»، فأين هذا مما يرمي إليه أولئك؟ هدانا الله وإياهم سواء السبيل» (مسند أحمد بتعليق أحمد شاكر:١٣٩٥).

وقال الشيخ محمد أبو زهرة في كتابه «تاريخ المذاهب الإسلامية» (٢/ ١٠): وقد استشاره – أي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بعض الصحابة في تأبير النخل، فأشار بعدم تأبيره، فلم يثمر النخل، فراجع الرجل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ذلك، فقال عليه السلام: «أنتم أدرى بشؤون دنياكم». وقد حمل بعض المنحرفين ذلك الحديث على مالايحتمل، فاتخذ منه سبيلا لتعليل أحكام الشريعة جملة، إذ فهم أن كل أوامر القرآن وأوامر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمبادئ الشرعية المقررة كتأبير النخل، أي أن الناس فيما يتعلق بشؤونهم الدنيوية من تشريع وصناعات وزراعات ونظم حكم ونظم اقتصادية واجتماعية وأسرية هم أدرى بها، وأن لهم أن يشترعوا ما شاؤوا من شرائع مع مخالفة القرآن والسنة وأن لهم أن يحلوا ويحرموا. وذلك افتراء على الله وعلى رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ إذ نسوا قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ

الَّذِيـنَ يَفْـتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَـذِبَ لَا يُفْلِحُـونَ) [النحـل:١١٦]، وأن الحـديث يتعلـق بالـصناعات وفنون الزراعة وتثمير الأشجار، فهل يتصور هؤلاء أن النبـي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يمكـن أن يكـون حجـة وذا خبرة في فنون الزراعة والتجارة، و صناعة الزجاج ، والجلـود، ونـسج الأقطـان والحريـر، وغـير ذلـك ممـا يتعلق بالمهن المختلفة. إن كانوايتصورون ذلك، فقد خلطوا خلطًا كبيرًا، ولم يميزوا بين رسول جاء بشرع مـن الـسماء، وصـانع ذي خـبرة فنيـة، وتـاجر عـالم بالأسواق. إن الحديث وارد في مثل موضوعه، وهو تـأبير النخـل وغـيره مـن الـصناعات والزراعـات ونحوهـا، فـما كـان الرسـول مبعوثًـا لمثـل هـذا، والتشريع فوق هذا، وهو الذي جاء به النبي». انتهى كلام الشيخ أبي زهرة.

وهنا يطرح السؤال نفسه: ما هو أمر الدين وما هو أمر الدنيا؟ وكيف نفرق بينهما؟

يقول الشيخ أشرف علي التهانوي في ذلك:

«والطريق الصحيح لمعرفة ذلك أن يعلم أولا ما هـو الـدين؟ لأن الـدين والـدنيا بينهما نسبة النهار والليل، والأشياء بضدها تتبين، فإذا أردنا أن نعرف أحـدًا بالليـل يكفـي أن نـدل عـلى النهـار ونعرفـه بحقيقته، ونقول له: إن النهار هو الوقت الذي تطلع فيه الشمس فيعلم بنفسه أن الليل هو الوقت الذي لاتطلع فيه الشمس. والدين حقيقته بديهية يعرفها كل مسلم؛ بل العالم كله. كل أحد يعلم أن الدين هو المناهج التي تُعلَم بتعليم هداة الدين. وهداة الدين هـم الـذين يُعلـم عنهم أن لهـم مع الله علاقة ليست لغـيرهم، ولـذلك أكـرمهم الله بتعليـم هـذه المنـاهج عن طريق الوحي والإلهام. وعصارة القول أن الدين هـو المنـاهج التـي تُعلـم بهدايـة الله وتعليمـه، وأنـه عبارة عن التعاليم الإلهية، والتعاليم الإلهية نوعان: نـوع يتعلـق بـالأمر أي يـؤمر بالعمـل بـه، وتنفيـذه؛ ونـوع يتعلـق بـه النهـي، أي ينهـى عـن العمـل بـه، فأعمال الـدين هي التي ورد بها حكـم إلهي أمـرًا أو نهيًا، وأعمال الدنيا هي التي لم يرد بها حكم إلهي أمرًا أو نهيًا. وعـدم ورود الحكـم الإلهي هـو الـذي يعبر عنـه بأنـه لم يـرد فيـه نـص شرعـي مبـاشرة أو غـير مباشرة، وعدم ورود النص يكون على طريقين: إما أن تسكت الشريعة في شأن عمل ما، ولاتتوجه فيه بـأمر أونهي، فيمكن أن يقـال: إنه ليس مـن الـدين، وإنـما هـو مـن الـدنيا، أو أن يـرد الـنص الـشرعي مـصرحًا بـأن عمـل كـذا مـن الـدنيا، فيكـون ذلـك أوضح في أنه ليس من الدين، وإنما هو من الدنيا. فالمقياس الصحيح لمعرفة عمل: هل هو ديني أو دنيـوي أن نعـرف هـل ورد بـه نـص شرعـي أمـرًا أو نهيًا، فـإن وجـد فهـو دينـي، وإن لم يوجـد سـواء في صـورة السكوت أو في صورة التصريح بأنه دنيوي فهو دنيوي (الإسلام والعقلانية، ص٢٨٥).

محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري

* * *

من ظلال التفسير

بقلم: العلامة الشيخ شبير أحمد العثماني رحمه الله
(١٣٠٥-١٣٦٩هـ/١٨٨٧-١٩٤٩م)

تعريب: أبو عائض القاسمي المباركفوري(*)

قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأۡكُلَ مِنۡهَا وَتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعۡلَمَ أَن قَدۡ صَدَقۡتَنَا وَنَكُونَ عَلَيۡهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلۡ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدٗا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةٗ مِّنكَۖ وَٱرۡزُقۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡۖ فَمَن يَكۡفُرۡ بَعۡدُ مِنكُمۡ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾

أي لانطلب منك ابتلاءً لك؛ بل رجاء البركة، حيث إذا توفر الرزق من الغيب من غير كد يمين ولاعرق جبين، اطمأنت قلوبنا واجتمعت خواطرنا على العبادة، وأيقنَّا بما أخبرتنا به بالغيب من نعم الجنة وغيرها برؤية نموذج صغير منها. وشهدنا بذلك شهود عيان. وذهب بعض المفسرين إلى أن المسيح عليه السلام وعدهم أنهم إذا صاموا لله ثلاثين يومًا ثم طلبوا شيئًا أُعطوا. فصام الحواريون، وطلبوا المائدة، وهذا هو المراد بقوله: (وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا). والله أعلم

أي اليوم الذي نزل فيه المائدة من السماء، يكون عيدا لأولنا وآخرنا، فيحتفل بها قومنا دومًا على أنه ذكرى. وبهذا التقرير يكون إطلاق (تَكُونُ لَنَا عِيدًا) كما في صحيح البخاري قول اليهود في قوله تعالى: (اَلْيَوْمَ اَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُم) قالوا: إنكم تقرؤون هذه الآية، لونزلت فينا لاتخذناها عيدا. كما أن اتخاذ الآية عيدًا معناه اتخاذ يوم نزولها عيدا. كما هو مصرح في الروايات الأخرى.

فقس عليه المائدة، فنزلت المائدة يوم الأحد، وهو يوم عيد الأسبوع عند النصارى، كما أن يوم الجمعة يوم عيد عند المسلمين.

أي تكون علامة على قدرتك، وعلى نبوتي وصدقها.

(*) أستاذ الحديث والأدب العربي بالجامعة.

أي بغـير تعـب وكـسب، فلاينقـصك شيء، ولايصعب عليك شيء.

فائدة ٤:

وحيث نزلت النعمة غير العادية والفريدة من نوعها لزم أن يكون التأكيد على شكرها مزيدا على العادي. وكذلك العذاب على الكفران غير عادي، وفريد من نوعه. وفي موضح القرآن: قيل: نزلت المائدة أربعين يومًا، ثم كفر بها بعضهم، أي أمروا أن يأكل منها الفقير، فأكل منها الثري والصحيح. ثم مسخ نحو ثمانين رجلا خنازير وقردة. وكان هذا العذاب على اليهود أولا ثم لم ينزل على أحد. وقيل: لم تنزل المائدة؛ فإنهم لما سمعوا هذا التهديد خافوا، فلم يطلبوا، ولم يذهب دعاء النبي عبثًا، وليس ذكره في الكلام خاليا عن الحكمة. ولعل من بركة هذا الدعاء أن أمة عيسى عليه السلام تمتعت بالرفاهية والمال دائمًا، ومن كفر بها منهم، أي لم يقبل بقلبه على العبادة؛ بل أنفقه في الإثم، فلعله يعذب في الآخرة أشد العذاب. وفيه عبرة للمسلم، بأن لايسأل تحقيق طلبه على سبيل خرق العادة، فيشق عليه شكره، ويكتفي بالأسباب الظاهرة، فهو خير له، ودلت هذه القصة أيضًا على أنه لايعين أحد من دون الله تعالى.

وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾

الركوع السابق في الواقع تمهيد لهذا الركوع. فقال في فاتحة الركوع السابق: (يَوْمَ يَجْمَعُ اللّٰهُ الرُّسُلَ فَيَقُوْلُ مَاذَآ اُجِبْتُمْ ۭ قَالُوْا لَا عِلْمَ لَنَا ۭ اِنَّكَ اَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوْبِ) [المائدة:١٠٩]، نبه على أنه سيُسأل جميع المرسلين بين يدي أممهم على رؤوس الأشهاد، وخص منهم بالذكر عيسى عليه السلام، الذي اتخذه ملايين البشر إلها، حيث يُسأل بصفة خاصة عن هذه العقيدة الباطلة. ولكن يُبدأ بتذكير النعم العظيمة الممتازة التي كانت عليه وعلى والدته، ثم يقال: (ءَاَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُوْنِيْ) [المائدة:١٦٦]؟ فيرتعد المسيح عليه السلام بهذا السؤال، ويقول ما يأتي لاحقًا. ثم يقال أخيرًا: (هٰذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصّٰدِقِيْنَ صِدْقُهُمْ) [المائدة: ١١٩].

والمشار إليه بـ(هذا) هو هذا اليوم المذكور في قوله: (يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُـلَ). وعلى كل، هذه الأحداث من أحداث يوم القيامة، وإنما عبر عنها بقوله: (قال) نظرًا إلى أن وقوعها حتم ويقين.

فائدة:

أي ما كان لي أن أقول مثل هذا القول الوقح، فأنت منزه أن يُشرك بك أحدٌ في الألوهية وغيرها. وليس من شأن من تمنحه منصب النبوة السامي أن يتفوه بما ليس حقا، فسُبّوحيَّتُك وعصمتي كلتاهما مما يقتضي أن أحذر التفوه بمثل هذا الكلام القذر. وبغض النظر عن الأدلة كلها فإن علمك المحيط لايخرج عنه شيء، فلو أني قلت ذلك حقا لعلمتَه حتمًا. وأنت على علمٍ بأني لم أنطق بمثل هذه الكلمة سرًّا ولا علانية؛ فلايخفى عليك ما يكنه صدري من الخواطر والهواجس.

أي لم أتجاوز أمرك قيد شعرة، فأنى لي أن ألقنهم ألوهيتي، وعلى العكس من ذلك لم أدعُهم إلا إلى عبادتك، وبينت لهم بيانًا شافيًا أن ربكم وربي هو الله الواحد، المستحق للعبادة. فما أكثر النصوص الصريحة في الإنجيل إلى يومنا هذا.

فائدة:

ولم أكتف بدعوة الخلق إلى توحيدك وعبادتك؛ بل واصلت مراقبتهم ما بقيت فيهم، حتى لايعتقدوا عقيدة باطلة أو أمرا في غير موضعه. ثم إن المدة التي قدرتها في علمك لبقائي فيهم، لما انقضت رفعتني إليك،- كما يظهر من مادة التوفي، ومقابلة «مادمت فيهم»-، فأنت وحدك كنت الرقيب عليهم. فلايسعني أن أتحدث عنه بشيء.

تنبيه:

راجع مبحث موت المسيح أو رفعه إلى السماء ونحوهما في آل عمران ضمن فائدة قوله: (اِنِّيْ مُتَوَفِّيْكَ وَرَافِعُكَ اِلَيَّ) [آل عمران:٥٥]. فما ترجم به المحقق قدس سره قوله: (فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي) برفعه إلى السماء يصدق عرفًا على الموت ورفع السماء. فكأنه نبه على أن التوفي لايستلزم الموت، كما أن التوفي المتمثل في الموت ليس له مدخل في المعنى قيد الدراسة في الآية. وقال النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: أقول يوم القيامة في أناس كما قال العبد الصالح – عيسى ابن مريم- (وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيْدًا مَّا دُمْتُ فِيْهِمْۚ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِيْ كُنْتَ اَنْتَ الرَّقِيْبَ عَلَيْهِمْۗ وَاَنْتَ عَلٰى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيْدٌ)[المائدة:١١٧]، فالقول بناء على مثل هذه التشبيهات بأن توفي النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وتوفي عيسى عليه السلام يجب أن يكونا متماثلين من كل الوجوه دليل على الجهل بالعربية. وكان

المشركون يعلقون أسلحتهم بشجرة تسمى ذات أنواط، فقال الصحابة: يارسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط. فقال النبي ﷺ: هذا كما قال قوم موسى: اجعل لنا إلها كما لهم آلهة. والمعنى اجعل لنا آلهة كما لعبدة الأصنام آلهة. هل يظن مسلم-حين يسمع هذا التشبيه- أن الصحابة طلبوا -والعياذ بالله- عبادة الأصنام؟ ولايتمسك بمثل هذه التشبيهات الدالة على العقيدة المناوئة للنصوص المحكمة وإجماع الأمة إلا الفئة التي ورد فيهم قوله تعالى: (فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ) [آل عمران:٧].

إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢٠﴾

أي لاتظلم عبادك، ولاتعتدي عليهم بغير حق، فإن عاقبتهم كان عين العدل والحكمة، وإن عفوت عنهم فليس هذا العفو لعجز وسفه. والله تعالى عزيز وغالب، فلايسع مجرمًا أن يتخلص من قبضة قدرته، حيث لايقدر الله تعالى عليه. والله سبحانه حكيم، فلا يمكن أن يترك مجرمًا وشأنه من غير عقوبة. وعلى كل، فما تحكم به في هؤلاء المجرمين نابع عن محض الحكمة والقدرة. وكلام المسيح عليه السلام هذا في المحشر،حيث لات شفاعة واستدعاء رحمة للكفار. ولذا قال المسيح عليه السلام (الحكيم) مكان (الغفور الرحيم) وغيرهما من الصفات. وأما إبراهيم عليه السلام فقد قال في الدنيا لربه: (رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ ۚ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي ۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) [إبراهيم:٣٦]، أي لاتزال الفرصة متوفرة بأن توفقهم للتوبة والرجوع إلى الحق برحمتك لاحقا، فتغفر لهم ماسبق من ذنوبهم.

أي ينال من كان صادقًا اعتقادًا وقولا وعملا- مثل المسيح عليه السلام- ثمرة صدقه اليوم.

فائدة:

الفوز الكبير هو رضوان الله تعالى. ولاتطلب الجنة إلا لأنها محل رضوان الله تعالى.

أي يعامل كل وفيّ ومجرم بما يناسب مكانة وجلال الملك المطلق.

تمت سورة المائدة

القيم وأثرها في نفوس الأفراد والجماعات

بقلم: الأستاذ/ محمد رجاء حنفي

حضارة المجتمع مصدر القيم الأساسية، فهي تنتقل من جيل إلى جيل، فكل جيل من الأجيال يعلم ويلقن ويدرب الجيل الذي يليه قيمه الأساسية، بما لحقها من تغيير أو تبديل أو تعديل، فالتربية هي العملية التي يلجأ إليها الأفراد للمحافظة على تراثهم الحضاري بكل ما ينطوي عليه من قيم ومبادئ أساسية وضرورية لحياة الفرد، لكي ينشأ الفرد متوافقا ومتجاوبا مع جماعته.

وليست القيم إلا وقاية للمجتمع من ازدياد الجرائم المختلفة، وشتى الانحرافات الخلقية وجميع الشرور التي يعاني منها الأفراد، والمجتمعات الإنسانية، وهي الوسيلة الوحيدة لبناء الفرد الخيّر والمجتمع الخيّر.

تعدّ القيم هي ا لسلوك الخلقي الفعلي للأفراد في تفاعلاتهم مع البيئة، والذي تمشى مع ما أخذ به المجتمع من تقاليد، وعادات، وعرف.

ويكتسب الفرد القيم اللازمة لبقاء شخصيته من ظروف البيئة الأولى التي يعيش فيها فيمتص مبادئها وقيمها الخلقية والروحية، وتصبح جزءا لايتجزأ من نفسه، ودافعا يدفعه إلى السلوك، فالطفل يمتص هذه القيم من الجو العام الذي يعيش فيه، ويتمثلها في نفسه، ويدخلها في حصيلة خبراته، وتقوم في نفسه مقام الضمير، تتحكم في أفعاله وفي تصرفاته، وتصبح بمثابة الرقيب على سلوكه وسلوك الآخرين.

ويلعب الإيحاء دورا مهمًّا في تكوين القيم، فالطفل يتأثر بصفة خاصة بما يوحي به إليه أبواه، فيسلك مسلكهما في الأقوال والأفعال، وينفعل نفس انفعالاتهما مستجيبا لنفس المؤثرات التي تثير فيهما الانفعالات، وكلما كان الإيحاء مقرونا بالممارسة، والأسلوب العلمي والقدوة الصالحة، كان تأثيره أعظم وأرسخ.

وعن طريق أسلوب الإيحاء والممارسة الفعلية، والمثل الصالح، تصبح القيم جزءًا من خبرات الطفل، ونمطا من أنماط سلوكه، يمارسه في المنزل وفي المدرسة وفي العمل عندما يكبر ويصير عضوا في المجتمع الكبير؛ لأن هذه القيم قد أصبحت نابعة من ذاته، وليست مفروضة عليه من سلطة خارجية.

ومادمنا بصدر الحديث عن القيم، فإن هذا يدعونا بالضرورة إلى التحدث عن تكوين الذات العليا، أو الضمير لدى الفرد، فالطفل منذ سن الثالثة من عمره تقريبا يعمل على أن يحل الصراع النفسي الذي ينشأ في أعماق اللاشعور بين رغباته غير المهذبة، وبين تلك المعايير والمثل العليا التي

تواضع عليها المجتمع، والتي يتلقنها من العالم الخارجي ممثلة في سلطة الوالد.

ويمتص الطفل بالتدريج تلك المعايير، ويبلورها في نفسه حتى تصبح بمثابة السلطة الداخلية، التي تحل محل السلطة الخارجية في تنظيم وضبط تلك الرغبات المحظورة، وتصبح هذه السلطة القائمة في النفس بمثابة الرقيب، الذي يحول دون خروج هذه النزعات والميول غير المهذبة إلى الخارج.

وطالما أن الضمير هو مصدر القيم لذا وجب أن تعمل كل أسرة بكل ما أوتيت من قوة على تنمية هذا الجانب المهم من النفس إذا أرادت أن تنشئ طفلها على حب الخير، وحب الفضيلة.

وإنه لمن الطبيعي أن أثر البيئة التي يعيش فيها الطفل يكون فاعلاً في نشأة هذه القيم وفي تطورها ونموها.

وإنه لمن الطبيعي – أيضًا – أن البيئة التي يسودها الشعور بالدفء والطمأنينة، البيئة التي تحمي ولاتهدد، والتي تصون ولاتبدد، والتي تبني ولاتهدم والتي يسودها جو من الثقة المتبادلة والأمن والأمان، والمحبة والمودة، والتشجيع، هي خير بيئة تترعرع فيها القيم ويتكون فيها الضمير.

المؤسسات التعليمية والمجتمع وأثرهما في تكوين القيم

لاتتكون القيم – وبالتالي الضمير – لدى الفرد نتيجة لتأثير الوالدين أو من يقوم مقامها فحسب، وإنما يتأثر الفرد في تكوينه القيمي والضميري بمعلميه في المدرسة وبالنظم الاجتماعية المختلفة، التي تحكم مختلف المجتمعات التي ينتمي إليها الفرد في مراحل حياته المتعددة.

ويخطئ خطأ كبيرا كل من يظن أن دور المدارس والمعاهد والكليات مقصور على التلقين النظري للمعارف والمعلومات المتنوعة.

إن دور المؤسسات التعليمية دور تربوي مهم، يتفاعل مع دورها التعليمي، إذ أن التلقين النظري للمعارف والمعلومات المتنوعة لايكفي وحده لتكوين القيم، وبالتالي الضمير، وتعديل سلوك الفرد، بحيث تتكون لديه نظرة محددة واتجاه معين بالنسبة لنشاطه في جوانب الحياة المختلفة.

والاقتصار على التلقين النظري خطأ ما بعده خطأ، نظرا لما تقوم عليه الظاهرة السلوكية التي تعتمد وترتكز على أعمدة ثلاثة هي:

١ – إدراك الموضوع ومعرفته

٢ – الانفعال به

٣ – ممارسته

ومن هنا نجد أن الفكر الحديث يصر على عدم الفصل بين الفكر والعمل، أو بين النظريات والتطبيق، أو بين الشعار والممارسة، فكل هذه الأشياء تعني أن القيم تصبح لغوا لاقيمة له إذا أصبحت عبارة عن مجرد كلام منفصل وبعيد عن واقع الحياة التي يحياها الفرد، وعن خبراته الحية.

على هذا النحو تنشأ القيم، وتستقر في النفوس، كضمائر حية فردية، وتكون بدورها الضمير العام للجماعة، وذلك من خلال التربية والتنشئة الاجتماعية، في الأسرة وفي المدرسة بل وفي واقع الحياة على جميع أشكالها ونظمها، وهذا فضلا

عن عامل القدوة والمثل الذي يحتذيه الفرد ويؤثر تأثيرًا بالغا في تكوين قيمه.

ولعل أهم هدف من أهداف الحياة في المجتمع هو مساعدة الفرد على كشف ما لديه من استعدادات، وقدرات، وإمكانات، إلى أقصى حد ممكن، والإفادة منها عن طريق خبراته الفريدة كي يصل إلى أعلى المراتب في النضج والرشد.

وإن إتاحة الفرص أمام كل فرد لأن يعمل وفق استعداداته وإمكاناته، فيه إشاعة للطمأنينة النفسية، والثقة بالنفس، وبالآخرين، وفيه إرساء لدعائم القيم التي يجب أن تسود في المجتمع، فالعمل لايعني مجرد بذل جهد عقلي أو مادي للتأثير على الأشياء المادية أو غير المادية المحيطة بالفرد للوصول إلى نتيجة محددة، ولكنه في حقيقته تفاعل بين الفرد والبيئة، يحاول الفرد أثناءه أن يحقق أهدافه، وأن يشبع رغباته وحاجاته، وأن يجعل قيمه ومثله حقيقة واقعة، وأن يعبر عن دوافعه وصراعه وقلقه بصورة مقبولة منه ومن المجتمع في غالب الأحيان، وهو في أثناء هذا التفاعل مع الوسط الذي يعمل فيه تنمو شخصيته وتتكامل.

والقيم الصحيحة تجعل المجتمع ينظر إلى أفراده على أنهم غايات في ذاتهم، وليسوا وسيلة لغاية، وتمنح الأفراد الاحترام والتقدير، وتبذر في نفوسهم أسس التعاون المحبة تلك الأسس التي يقوم عليها كل مجتمع قويم.

مفهوم القيم

تعدّ القيم من المفاهيم التي تدخل جوانب النشاط الإنساني كافة وتستخدم كتعبير قيمي للنظم والعلاقات البشرية سواء أكانت هذه النظم والعلاقات البشرية داخلية أم خارجية كالأنظمة الاجتماعية المختلفة، وسواء أكانت سلوكا إنسانيًا على مستوى الأفراد أم على مستوى الجماعات، إذ أن الإنسان بالنسبة لأي نظام أو أي علاقة بشرية، أو أي سلوك لابد وأن يتضمن في تعامله معها أحكاما قيمية، وإن اختلفت درجة القيمة من حيث الإلزام أو الاختيار.

ومن هنا يتضح مفهوم القيم، بحيث تعني: الأحكام التي يصدرها الإنسان على أشياء أو على موضوعات معينة، ثم يتصرف وفقا لها، خلال تفاعله مع البيئة في عناصرها المختلفة لإشباع حاجاته العديدة، المتنوعة والمتغيرة.

ويستبين أثر القيم وتبرز أهميته حين يكون الإنسان بصدد مواقف يشتد فيها الصراع بين حاجاته المختلفة من ناحية، وبين الواقع من ناحية أخرى، أو حين تتعارض أساليب التوافق التي اعتادها الفرد مع أساليب أخرى جديدة عليه، وذلك نتيجة لعوامل الحركة الدائبة والتغير المستمر في حياة الإنسان.

التغير المادي السريع وأثره في صراع القيم

إن أي مجتمع من المجتمعات به العديد من النظم الاجتماعية، وكل من هذه النظم تغير من وقت لآخر بتأثير عوامل متشابكة معقدة، بيد أن الملاحظ أن التطور المادي سريع في تقدمه، بينما تميل النظم الأخرى كالمبادئ والعادات والتقاليد إلى التغير

البطيء غير المساير لعجلة التطور المادي في المجتمع.

ومن هنا كان لابد من حدوث التناقض الحتمي بين الظواهر المتطورة، بطريقة غير متجانسة، وهذا التضاد هو الذي ينشئ حقائق اجتماعية غير سوية وجديدة في المجتمع كالنظرة المادية، والأثرة والأنانية، وضعف الروابط الاجتماعية وهذه الظواهر لها دورها الفاعل في خلق وزيادة الجرائم في المجتمع.

ويرى بعض علماء الاجتماع أن التغير الاجتماعي غير المتكافئ ينتج عنه العديد من الظواهر التي تشكل المشكلات الاجتماعية، وأن الجريمة تأتي نتيجة للتطور المادي السريع غير المتكافئ في المجالات الأخرى، ويدللون على رأيهم بازدياد نسبة الجرائم في المجتمعات التي تتم فيها عمليات التغير الاجتماعي والحضاري السريع.

صراع القيم والضمير

إن ضمير الفرد يتكون تدريجيًّا من القيم، أي من الأوامر والنواهي ومن المعايير والأحكام المختلفة، التي يمثلها الفرد وهو صغير من والديه ومن السلطة في المجتمع الذي يعيش فيه أو بعبارة أخرى يعد الضمير هو منظومة التعاليم الدينية، والقيم الأخلاقية والمعايير الاجتماعية، ومبادئ السلوك التي تكوّن وجهة نظر الفرد في الحياة، فالضمير هو الإطار الذي ينظر إلى المجتمع من خلاله.

وإذا كانت القيم متناقضة، وكان هذا التناقض عنيفا، فلابد وأن يتعرض بعض الأفراد خصوصًا الأطفال والشباب إلى أن تتكوّن لديهم ضمائر قلقة، وقيم ومثل غير مستقرة، ومستقبل غير واضح المعالم، وأهداف غامضة، وهذا كله من شأنه أن يؤدي إلى سوء التوافق، وإلى انحرافات السلوك.

وعلى هذا فإنه ينبغي عدم إغفال أي عامل من العوامل الموثرة في حياة الإنسان سواء كانت ذاتية، عضوية أو نفسية، أو كانت خارجية في محيط البيئة بعناصرها المختلفة، المادية والمعنوية فكل هذه العوامل متشابكة ومتقاطعة ونتيجة لهذا التفاعل يتأثر سلوك الفرد وتتأثر اتجاهاته في المجتمع، وقد يسهم ذلك بطريقة مباشرة في سلوك الفرد المنحرف أو غير مباشرة.

القيم الإسلامية وأثرها في سلامة النفس البشرية

إن القيم الأخلاقية في الإسلام لاتنفصم عن غيرها من القيم الروحية والنفسية والاجتماعية؛ لأن الهدف الأسمى من العائد والشعائر والعبادات هو بناء الأخلاق، ولم ترد في القرآن الكريم، أو في السنة النبوية الكريمة عبارة إلا وهي مرتبطة غاية الارتباط بالجانب الأخلاقي ومهتمة به.

والإسلام لم يجعل من العقيدة مجرد مشاعر وجدانية لتربية الوجدان، ولامجرد شعائر تعبدية تؤدى في المسجد فحسب، ولا مجرد وسائل تهذيبية تسمو بالروح فقط، وإنما يربط بين هذه القيم جميعها ربطا وثيقا محكما، فلا عقيدة منفردة عن العبادة، ولاعبادة منعزلة عن الأخلاق ولا أخلاق منفصلة عن الإيمان، وتلعب الوراثة والبيئة أثرها في تنمية القيمة الخلقية للفرد، وقد وضع الإسلام نظاما ومنهجا فريدا لأسس التربية الخلقية، لأنه يريد أن

يضمن للفرد حتى قبل ميلاده وعاء صالحا، ومنبتا حسنا ينتج منه، وهذا الوعاء هو ما يطلق عليه، في العلم الحديث اسم «قانون الوراثة» فصفات الوالدين هي التي ستكون محور التربية فيما بعد، وفي هذا الشأن يقول -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- «تخيروا لنطفكم، فإن العرق دساس» رواه ابن ماجه.

ويقول عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام مبينا أثر البيئة في تربية الفرد: «مامن مولود يولد إلا على الفطرة» رواه مسلم.

وأما البيئة الفاسدة ففيها خطر شديد على الفطرة، لأنها تمسخها وتشرد بها، وتخلف فيها من العلل ما يجعلها تعاف العذب، وتستسيغ الفج، وذلك هو السر في انصراف فريق من الناس عن الإيمان والصلاح، وقبولهم للكفر والشر مع منافاة ذلك لمنطق العقل، وضرورات أصل الخلقة يقول المولى – سبحانه وتعالى – في حديثه القدسي الشريف: «إني خلقت عبادي حنفاء كلهم، فأتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم» رواه مسلم.

ومما لاشك فيه أن المحنة التي يمر بها العالم أجمع اليوم، ويعاني منها أشد المعاناة هي أزمة روحية، منشؤها كفره بالقيم الأخلاقية والمثل العليا التي جاء بها الدين ولا نجاة لهذا العالم مما يرتكس فيه إلا بالعودة إلى تلك القيم وتلك المثل يهتدي إليها بفطرته، ومتى اهتدى العالم إلى هذه الفطرة اهتدى إلى الإسلام؛ لأن الإسلام هو دين الفطرة.

وعناية الإسلام بالقيم الأخلاقية، وتنميتها في طبيعة النفس البشرية، إنما تكمن في ثلاثة اتجاهات هي:

١ - الاهتمام بالتربية الوجدانية في النفس البشرية.

لأن هذه التربية هي الأساس في ربط النفس بخالقها سبحانه – تبارك وتعالى – إذ أنه هو الذي يعلم ما في السرائر، ويعرف خبايا النفوس، وهو الذي يراقب، يقول رسول الله -ﷺ- «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى». متفق عليه.

ويقول المصطفى – صلوات الله وسلامه عليه - «... أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» رواه مسلم. فمن خلال هذين الحديثين الشريفين – وغيرهما كثير من هذا المعنى – نرى أن الإسلام قد وضع أسس وقواعد التربية الوجدانية، باعتبارها الوازع النفسي القوي الذي يكون للإنسان بمثابة المرشد والدليل لسلوكه في الحياة ويبصره بعواقب أفعاله وسلوكه، ويعد الاعتقاد بوجود خالق، مبدع، قادر، يحاسب على الكبائر والصغائر، ويطلع على ماتكنه الصدور من أكبر مقومات الضمير.

وبهذه التربية الأخلاقية يتم خلق الوازع الداخلي، الذي يجعل محاسبة الإنسان نابعة من ذات نفسه، فهو يشعر بالرقابة على سلوكه وتصرفاته سواء شاهده الناس، أم كان بعيدا عن أعين الناظرين، لأنه يدرك تمام الإدراك أن الحق – سبحانه وتعالى – مطلع عليه، فهو ﴿يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ (سورة طه:٧)

٢- الاهتمام بتربية النفس البشرية على المحبة والمودة، وتنمية العلاقات الاجتماعية في طبيعتها:

لأن الإنسان اجتماعي بطبعه والمحور الخلقي في الإسلام يدور حول احترام فردية الفرد، والثقة في قدرته على التمييز بين الخير والشر، بما أوتي من عقل وفكر. وهذه الفردية ملتزمة بمجتمع، وتعد مسؤولية شخصية عن تحقيق العدل والخير فيه وحرية الفرد فيها التزام خلقي في حدود صالح الجماعة وغيرها.

٣- الاهتمام بتربية النفس البشرية على ممارسة السلوك الذي يحقق هذه القيم الأخلاقية:

ولايتأتى هذا التهذيب للنفس البشرية إلا باتباع وامتثال ما أمر به المولى – سبحانه وتعالى – واجتناب ما نهى عنه يقول الحق – سبحانه وتعالى – عز وجل: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (آل عمران:٣١).

ويقول سبحانه جل شأنه في محكم آياته: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ (النساء:٨٠).

ويقول سبحانه وهو أصدق القائلين: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ (الحشر:٧).

إن الناظر في مدى عناية الإسلام بهذه القيم الأخلاقية يرى أن الهدف منها هو: تنمية السلوك الخلقي، على أساس شموله لما ينظم علاقة الفرد بنفسه، وعلاقته بغيره من الناس ومن الجماعات، وعلاقته بالكون، طبقا لما أكده الإسلام، كما أنها تهدف إلى سعادة الإنسان عن طريق إرضاء خالقه سبحانه عز وجل، بحيث تصبح الأخلاق هي ذلك النشاط الذي يربط بين تعاليم الإسلام والإنسان فردا وجماعة، وبحيث تتحول هذه التعاليم إلى حياة يومية تمارس.

إذا كان النظام الأخلاقي في الإسلام شاملا وكاملا فإنه من الضروري أن تكون القيم الأخلاقية شاملة ومتكاملة، بحيث تلبي غرائزه وحاجاته الكامنة في طبيعته النفسية، وبذلك يتكامل الجهاز النفسي والعضوي في الإنسان. وليست عناية الإسلام بهذه القيم الأخلاقية قائمة إلا على اعتبار أنها الأساس في التربية والتدريب والتهذيب، وهي في الوقت نفسه أسلوب علاجي ووقائي.

القيم الإسلامية وأثرها في التقدم الحضاري

تعد الحضارة الإسلامية حضارة أخلاقية، تجمع بين الفكر والعمل، بيد أنها لاتقدس الفكر، ولا ترفعه فوق العمل، كما هو الحال والشأن في الحضارة اليونانية القديمة.

والحضارة الإسلامية حضارة تجمع بين الناحية المادية والناحية الروحية في الأفراد وترى أن المجتمع المتكامل هو المجتمع الذي لايهمل الحوافز المادية إلى جانب الحوافز الروحية في عملية التطور. ومن هنا كانت الأمة الإسلامية الآخذة بهذه الحضارة أمة وسطا يقول المولى سبحانه و تعالى ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ﴾ (البقرة:١٤٣).

ويقول سبحانه عز وجل ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ (آل عمران: ١١٠).

وقيم الإسلام الدافعة إلى الحضارة ليست قيما مستقلة بذاتها، وإنما هي قيم ذات فعاليات إيجابية في واقع المجتمع، ويمكن أن يقاس مدى فاعلية هذه القيم من حيث القوة والضعف، بالنظر إلى سلوك الأفراد الذين يعتنقونها ويسيرون على هديها، ووفقا لمبادئها ومنهجها، فليس في الإسلام تفرقة بين القيم الذاتية والقيم الخارجية.

وهذا هو ما يميز الإسلام عن بقية الأديان، والمذاهب والفلسفات الأخرى، فالإسلام يربي أولا وذلك ليجعل النفوس مهيئة لتلقي أحكامه، ثم يدعو الناس إليها ثم يقيم من أنفسهم حراسا عليها.

والإسلام لايحفل ولا يعنى بالمعاني المجردة، حيث إنه دين عمل أساسا فهو عندما يحكم على الفرد إنما يحكم بما يتمثل في سلوكه العملي من القيم لأن سلوكه نابع عما بداخله من مبادئ يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (التوبة: ١٠٥).

إن القيم الأخلاقية هي التي تعصم المجتمعات من الانحلال وتصون الحضارة والمدنية من الضياع، ودونها لاتنهض الأمم، ولا تقوى الدول، مهما بلغت من العلم والازدهار فالعلم والأخلاق لاتستغني عنهما المجتمعات ولاتستغني المبادئ والقيم عن الضمائر الحية، التي لها أثرها الفاعل في حماية النفس البشرية.

ولأن يكون متوافقا مع نفسه ومع مجتمعه، ولكي يكون بعيدا عن الصراع والقلق والتوتر النفسي وجب أن تكون القيم والمعاير والمعتقدات والمبادئ الخلقية التي يستخدمها في الحكم على دوافعه وسلوكه – والتي يهتدي بها في أفعاله وتصرفاته كافة – أن تكون قد أكسبت لديه صفة الاستقرار النسبي، وليس هناك أدنى تعارض أو تناقض بين بعضها والبعض الآخر، حيث إن ذلك كله يعد حصيلة التطبيع الاجتماعي.

ويعد استقرار القيم وانسجامها، العامل الأساسي والفاعل في الاستقرار الانفعالي لدى جميع الأفراد.

وبقدر ما تكون هذه القيم جزءا متكاملا مع الكيان النفسي للفرد بقدر ما يسود المجتمع من طاقات إنسانية خلاقة، جديرة بدفع عجلته نحو التقدم والازدهار.

ومن الضروري لتفهم العلاقات الاجتماعية، وإدراك عواقب السلوك، أن يكون هناك الثواب والعقاب الذي يعود على الذات.

كما أن الإسلام يهدف أول ما يهدف إلى خلق مجتمع واع، يسعد به أبناؤه، مجتمع صالح يكثر فيه الخير، ويتضاءل فيه الشر، مجتمع يجب أن يخضع سلوك الفرد فيه خضوعا كليًّا وجزئيًّا لتوجيهات القرآن الكريم والسنة الشريفة حتى يسعد مجتمعه وترقى به أمته وينعم بحياة هانئة في دنياه، سعيدة في أخراه.

من تـاريخ الجامعة الإسلامية : دارالعلوم/ ديوبنـد

(الحلقة ١١٤)

بقلم: **الأستاذ/ سيد محبوب الرضوي الديوبندي -رحمه اللّه-**
(المتوفى ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م)
ترجمة وتعليق: **محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري**(*)

تراجم خريجي دارالعلوم/ديوبند:

١٢٠- الشيخ محمد منظور النعماني رحمه الله:

أصـله مـن قـصبة «سـنبهل»، وبهـا ولـد في ١٨/شـوال عـام ١٣٢٣هـ، وتلقـى مبـادئ العلـم في «سنبهل»، وقرأ أيامًا في مدرسة عبد الرب/دهلي، ثم التحق بدارالعلوم/مئو من أعمال أعظم كره، ثم التحق بدورة الحديث بدارالعلوم/ديوبند وقضى بها عـامين ليتخـرج منهـا عـام ١٣٤٥هـ، و كـان مركـزه الأول في امتحان دورة الحديث الشريف.

ثم قام بالتدريس في مدرسة «جله» في أمروهه ثلاث سنوات، وشغل مشيخة الحديث بدارالعلوم ندوة العلماء/لكناؤ. وأنشأ مجلة باسم «الفرقان» في مدينـة «بـريلي» في عـام ١٣٥٣هـ/١٩٣٤م، وصـدر لهذه المجلة عـددان خاصـان: الأول بمجدد الألـف الثـاني، والثـاني بالـشاه ولي الله الـدهلوي. واتجهـت مجلـة «الفرقـان» في أول أمرهـا إلى أسـلوب المنـاظرة، ثـم تحولـت منـذ عـام ١٩٤٢م/١٣٦١هـ إلى مجلـة علميـة دينيـة محـضة. ووصـل الـشيخ حبلـه بحبـال جماعـة الـدعوة والتبليـغ منـذ عـام ١٣٤٣هـ، وهـو عضو في رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة.

والـشيخ الـنعماني كاتـب ومؤلـف نـاجح في الأردية، ومؤلفاتـه كلهـا في متنـاول فهـم النـاس. وأسـلوبه بـسيط سـلس جـذاب، ولقيـت مؤلفاتـه القبول في الأوساط الشعبية والعلمية كلتيهما. وكتابه «معارف الحديث»- وقد خرج له ستة مجلدات إلى اليوم- مجموعة مختارة من الأحاديث النبوية، راعى فيه في شرح الأحاديث نفسية العصر الحاضر.

ومن أهم كتبه: «إسلام كياهـــــے»؟ و«دين وشريعت»، و«قرآن آپ سے كيا كهتا هـے»؟ كتب قيمـة للغايـة، ولـه أيـضًا «حقيقـة الكلمـة الطيبـة»، و«حقيقـة نـماز»، و«آپ حـج كيـــــسے كـرين»؟ و «بركات رمضان»، و«تحقيق مسألة إيصال ثواب»، و«تـذكره إمـام ربـاني»، و«ملفوظـات مولانـا محمـد إلياس»، و«بوارق الغيب»- في مجلدين-، و«معركة

(*) أستاذ الحديث واللغة العربية وآدابها بالجامعة.

القلم»، و«حضرت شاه إسماعيل شهيد بر معترضين كى إلزامات»، و«خاكسار تحريك»، و«قرآن علم كي روشني مين»، و«إسلام وكفر كي حدود»، و«قاديانيت» وغيرها.

تعين عضوا للمجلس الاستشاري بدارالعلوم /ديوبند عام ١٣٦٢هـ، وهو أقدم أعضاء المجلس، ويواظب على حضور جلسات المجلس الاستشاري والمجلس التنفيذي.

١٢١- الشيخ حامد الأنصاري الغازي رحمه الله:

من أخلاف الشيخ منصور الأنصاري-سبط الإمام محمد قاسم النانوتوي-، ولد في «أنبيثه» عام ١٣٢٧هـ/١٩٠٩م، وتلقى مبادئ العلم في «مالير كوتله» على الأستاذ الشهير في عصره وجده للأم الشيخ صديق أحمد الأنبيثوي. فقرأ في دارالعلوم منذ عام ١٣٤١هـ إلى ١٣٤٦هـ، وهو كاتب ذو أسلوب سلس خلاب وأديب له طراز خاص، وصحافي بارز وخطيب مصقع في اللغة الأردية. واشتغل مديرا مسؤولا لمختلف الصحف، منها: «الجمعية»، و «دهلي»، و«مدينة/بجنور»، و«جمهورية/مومبائ» وغيرها. ومن أشهر مؤلفاته «إسلام كا نظام حكومت»، قام بطبعه ندوة المصنفين/دهلي. وله كتاب قيم حول الخلق العظيم في السيرة النبوية، وكان يحظى بالمقدرة على الشعر، وله نظرة غائرة في السياسة. وظل على علاقة مديدة مع جمعية علماء الهند في الجانب السياسي. كما ولي رئاسة جمعية العلماء/فرع مهاراشترا، وكان عضوًا في المجلس الاستشاري بدارالعلوم/ديوبند.

وزار الحرمين الشريفين عام ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م، وتشكل شخصيته الموقرة الخلابة مزيجًا رائعًا من الخلق والتواضع والوقار. واختارته دارالعلوم/ديوبند للاستعدادات للحفل المئوي الذي عقدته. فيقوم بهذه الأعباء على أحسن وجه، وبكل ما أوتي من جهد وقوة.

١٢٢- الشيخ القاضي زين العابدين سجاد الميروتي رحمه الله:

من عائلة القضاة في مدينة «ميروت»، التي تحتل منصب القضاء في «ميروت» ومكانة في العلم والعمل منذ عهد الملك محمد تغلق(٧٢٥-٧٥٢هـ). وكان القاضي زين العابدين أحد أعضاء هذه العائلة النابهين، وورث عن آبائه تقاليدهم[1].

ولد القاضي زين العابدين في نحو عام ١٣٢٨هـ/١٩١٠م في «ميروت»، وتلقى مبادئ العلم في مدرسة دارالعلوم/ميروت، ثم في مدرسة إمداد الإسلام /ميروت، وقرأ على الشيخ عبد المؤمن الديوبندي مشكاة المصابيح إلى كتاب تفسير البيضاوي. وتلقى مذاق الأدب العربي بمصاحبة الشيخ أختر شاه خان أحد أساتذة مدرسة إمداد العلوم، واجتاز في تلك الأيام اختبار «فاضل الأدب

العربي» في جامعة إله آباد. وقرأ العلوم الإنجليزية إلى الثانوية، ثم التحق بدارالعلوم/ديوبند عام ١٣٤٥هـ لإكمال دراسة الحديث الشريف، واستفاض من كل من العلامة أنور شاه الكشميري والشيخ حسين أحمد المدني رحمهما الله، وتخرج من دورة الحديث الشريف عام ١٣٤٦هـ بامتياز.

وبرع في أيام تحصيله الدراسي في إنشاد القصائد العربية والنقل من العربية إلى الأردية. وبدأت الجرائد الأردية الراقية تنشر مقالاته المترجمة. وكان الشيخ تاجور النجيب آبادي يصدر في تلك الأيام مجلة «أدبي دنيا» من لاهور، فوقع اختياره لمساعدة تحرير جريدة «أدبي دنيا» على القاضي زين العابدين، فتحول إلى «لاهور». وأنشئت ندوة المصنفين عام ١٣٥٧هـ/١٩٣٨م فانضم القاضي زين العابدين إلى أعضاء التحرير فيها. وألف في تلك الأيام ثلاثة أجزاء من كتاب «تاريخ ملت»، وكذلك «نبي رحمت»، و«خلافت راشده»، و«خلافت بنو أمية». وله أعمال أخرى كثيرة، من أهمها وأبرزها: «بيان اللسان»- قاموس عربي أردي-، و«قاموس القرآن»- معجم ألفاظ القرآن-، و«انتخاب صحاح ستة»، و«سيرة طيبة»، و«شهيد كربلا»، و«كلام عربي». وسرد في «بيان اللسان» الألفاظ في وضعها الأصلي بغض النظر عن مادة الكلمة الأصلية، وشرحها شرحًا صرفيًّا ونحويًّا.

وطبع الكتاب مرات. وكذلك «قاموس القرآن» الذي شرح فيه الألفاظ شرحًا لغويًّا بجانب ملاحظات جامعة شاملة على جميع الكلمات. ونال القبول الواسع.

وأصدر في زمان مجلة موقرة من «ميروت» سماها «الحرم». وكان أسلوب القاضي زين العابدين في الكتابة بسيطا سهل الفهم، وخلابًا. وكانت له مكنة كاملة في الترجمة من العربية إلى الأردية.

ودعاه الأستاذ محمد مجيب عام ١٩٥٧م لتدريس التاريخ والتفسير في الجامعة الملية الإسلامية/ دهلي، فولي منصب الأستاذ بها مدة من الزمان(٢).

عُين عضوًا في المجلس الاستشاري بدارالعلوم/ديوبند، بجانب عضويته في كل من المجلس التنفيذي لندوة العلماء/لكناؤ، والقسم الديني في جامعة المسلمين/عليكره، والمجلس التنفيذي لجمعية علماء الهند وغيرها. ويرأس هيئة التعليم الديني الهندي.

١٢٣- الشيخ شمس الحق الفريد فوري رحمه الله:

من سكان «فريد فور» في بنغلاديش، ولد في نحو عام ١٣٢٨هـ، وتلقى العلم أولا في جامعة مظاهر علوم /سهارنفور، ثم التحق بدارالعلوم/ ديوبند، وتخرج منها عام ١٣٤٦هـ.

وأنشأ الشيخ الفريد فوري مدرسة «الجامعة

القرآنية» في «داكه» منطلقًا لنشاطاته العلمية والدعوية. وأقام لها مباني شامخة، ومسجدًا. وتحتل هذه المدرسة مكانة بارزة في المدارس الدينية في «داكه».

كان الشيخ شمس الحق مؤلفًا كبيرًا في اللغة البنغالية، قام بخدمات جليلة لتعريف المسلمين البنغال بالعلوم الدينية، فقام بنقل كتاب «بهشتي زيور» إلى اللغة البنغالية، الذي لقي قبولا واسعًا في «بنغال». كما نقل كتبًا أخرى للشيخ أشرف علي التهانوي إلى اللغة البنغالية.

جمع الشيخ بين الإخلاص وقول الحق، والجرأة الكبيرة. وكان على صلة قوية مع ولاة باكستان الشرقية. ولكن لايبالي بأن يقول الحق بملء فمه إذا كان الأمر راجعًا إلى الدين. وتدهور وضعه الصحي في آخر عمره، وأما تحمسه للخدمات الدينية فلم تخمد ناره.

توفي في ذي القعدة عام ١٣٨٨هـ عن عمر بلغ (٦٠)عامًا.

١٢٤- الشيخ السيد فخر الحسن رحمه الله:

ولد الشيخ في موطنه قصبة «عمري» من أعمال «مراد آباد» في ١٠/رجب عام ١٣٢٣هـ، وأرخوا لاسمه بـ(مظهر حسين). قرأ القرآن الكريم ومبادئ الدين الأردية ومبادئ الفارسية على الحافظ نسيم الدين، والحافظ عبد القادر الأمروهوي. وكان والده ناظرا للمكتبة في مدرسة شاهي مراد آباد، فالتحق بمدرسة شاهي مراد آباد في نحو عام ١٣٣٥هـ. وأكمل بها دراسة الفارسية، وقرأ مبادئ المنهج الدراسي النظامي على والده، ثم التحق بجامعة مظاهر علوم/سهارنفور، وتلقى دراسة المرحلة المتوسطة. والتحق بدارالعلوم/ديوبند عام ١٣٤٣هـ، وتخرج من دورة الحديث الشريف بها عام ١٣٤٧هـ.

ثم ولي التدريس في المدرسة العالية/ فتحفوري، ثم تحول منها إلى «بيهار»، وولي تدريس بعض الكتب الصحاح الحديثة في مدرسة شمس العلوم/بتنه، ثم عاد منها بعد سنة إلى المدرسة العالية/فتحفوري، ثم ولي رئاسة التدريس بالمدرسة العالية أخيرًا. ثم استدعي عام١٣٦٢هـ إلى دارالعلوم/ ديوبند وأسند إليه تدريس المرحلة العليا. ونيط به تدريس كتاب صحيح مسلم، والأمور العامة ونحوها، ولقي دروسه في صحيح مسلم وتفسير البيضاوي في دارالعلوم/ديوبند صيتًا واسعًا. وقد نشر المجلد الأول من أماليه على تفسير البيضاوي، المسمى بالحاوي. وكانت له مكنة في الخطابة والوعظ أيضًا.

توفي العلامة محمد إبراهيم البلياوي عام ١٣٨٧هـ، فولي رئاسة التدريس بدارالعلوم/ديوبند، واستمر على ذلك إلى يومنا هذا.

١٢٥- الشيخ القاضي سجاد حسين الكرتفوري رحمه الله:

ولد عام ١٣٢٨هـ، وهو من سكان «كرت

فـور» مـن أعـمال «بجنـور». تخـرج مـن دارالعلـوم/ ديوبنـد عـام ١٣٤٧هـ، واجتـاز اختبـار «المولـوي»، و«العــالم»، و«فاضــل الأدب» في مؤسـسة إله آبــاد التعليميـة. كـما اجتـاز اختبـار «المنـشي الفاضـل»، و«المولوي الفاضل» في جامعة بنجاب.

ولي التـــدريس أولا في المدرســـة العاليـــة/ فتحفوري، ثم ولي رئاسة التدريس بها. وبايع الشيخ حسين أحمد المدني. له هوامش نافعة وسهلة على كل من «كلستان»، و«بوستان» -للسعدي-، و«كريما»، و«ديــوان حــافظ شــيرازي»، و«مالابــد منــه»، و«كلزاردبـستان»، و«حمـد بـاري»، و«بنـد نامـه» وغيرها من كتب الفارسية. واعتنى بتصحيح ونشر هذه الكتب اعتناءً بالغًا. وعمل شرحًا على «السبع المعلقات» باللغة الأردية سماه «التوشيحات».

ومنحته الحكومة الهندية جائزة اللغة الفارسية اعترافًا بخدماته العلمية.

ونشرت بعض مقالاته في صحيفة «الجمعية» وغيرها، وكان له قدرة فائقة على الكتابة بالأردية والخطابة بها، وجمع بين العلم والفضل والتواضع وسمو الأخلاق، بجانب عضويته لجمعية علماء الهند مدةً من الزمان. ويقوم بأعباء الأمين العام في المؤسسة الدينية التعليمية/دهلي. كما أنه نائب قيم وقفيةِ صيدليةِ «همدرد».

* * *

الهوامش:

(١) ظل سلف القاضي زين العابدين على صلة بحركة الشاه ولي الله الدهلوي، فكان جده القاضي أحمد الله الشهيد مشاركا مع السيد أحمد الشهيد. وكان في قافلة السيد الشهيد التي انطلقت عام ١٢٣٦هـ/١٨٢١م إلى الحج، واستشهد في معركة «بالاكوت»، كما كان جده القاضي عبد الباري ساهم مساهمة بارزة في حرب تحرير عام ١٨٥٧م رغم حساسية منصبه العالي. وكان المولوي محمد هاشم- الذي كان الإمام محمد قاسم النانوتوي على صلة بمطبعته المعروفة بمطبعة الهاشمي- ينتمي إلى هذه العائلة. وكان والده من أجل تلامذة كل من الشيخ بشير الدين، والشيخ المفتي عزيز الرحمن العثماني، والشيخ ناظر حسن الديوبندي. أسند الحديث عن الشيخ فضل رحمن الكنج مرادآبادي، وقام بترتيب ترجمة الشاه عبد العزيز الدهلوي «العزيزية»، وكذلك «ملفوظات العزيزي» ونشرهما.

(٢) تعرف في الهند مؤسستان هامتان للمسلمين لتعليم الدراسة الإنجليزية: جامع المسلمين في عليكره، والجامعة الملية الإسلامية، وظل القسم الديني في المؤسستين منوطا بخريجي دارالعلوم/ديوبند في الغالب. وأول من ولي نظارة القسم الديني في جامعة المسلمين/عليكره هو الشيخ عبد الله الأنصاري وخلفه ابنه الشيخ أحمد ميان الأنصاري في هذا المنصب وأخيرا بذل الشيخ سعيد أحمد الأكبرآبادي جهودا جبارة للرقي بهذا القسم – وكان في وضع عادي جدا- إلى مصاف أقسام الجامعة الأخرى. فيحتل القسم الديني فيها المكانة التي تحتلها الأقسام الأخرى فيها.

وأول من ولي نظارة القسم الديني في الجامعة الملية الإسلامية الخواجه عبد الحي الراحل، ثم القاضي زين العابدين سجاد. وكان من أعظم فوائده أن المؤسسات الثلاث هذه ظلت تعانق بعضها مع بعض في المذهب.

التاجر القدوة

بقلم: الأستاذ/ رشيد ناجي الحسن

حَثَّ ديننا على التجارة عمومًا، وجعلها من أصول الحلال؛ بل سماها القرآن الكريم فضل الله، فقال تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾ وكان التاجر المسلم مثالا لخلق الإسلام، وقدوة لمن يتعامل معه، وعلى إثر ذلك اعتنق كثير من الشعوب هذا الدين العظيم، لما رأوه مجسدا في شخص التاجر المسلم، ولا أدل على ذلك من فهم المسلمين أن التجارة عبادة، وأن للسوق آدابا يجب التزامها، وكان التجّار المسلمون يحملون معهم إلى الآفاق إلى جانب بضاعتهم أفكارهم ومبادئهم، وعقيدتهم الدينيّة مصدر عزهم وفخرهم، فكان ذلك الانتشار السلمي الهادئ للإسلام في ربوع «إندونيسيا» و«جاوا» و«الفلبين» و«سرنديب»، وغيرها من البلاد النائية، كما كانوا يترددون على حواضر العالم الإسلامي في التجارة وطلب العلم والرواية.

ولعلنا لا نكون مبالغين إذا قلنا: إن الإسلام انتشر في كل مكان وصل إليه التجار المسلمون في العصر الإسلامي الأول، ذلك أن التجار المسلمين كانوا يعتبرون أنفسهم دعاة ومبلغين، قبل أن يكونوا بائعين وشارين.. وتجارًا للآخرة قبل أن يكونوا تجارًا للدنيا.

- يقول أحد التجار الملتزمين: إنّ كلمة «تاجر» تعتبر عندنا معشرَ التجار اختصارا في أحرفها الأربعة لعدد مماثل من المعاني، فحرف التاء تعني التقوى، والألف أمانة والجيم جرأة والراء رحمة.

نعم، فالتاجر يجب أن يكون أولا تقيًّا، يهاب الله في أعماله وتجارته، وأمينًا حيث تقتضي الأمانة في التعامل مع الناس ومع غيره من أولاد الصنعة أن يكون مؤتمنا على الأموال المودعة لديه، وخاصة في فترة السفر إلى الحج، حيث كان معروفا أن يتم إيداع الأموال عند أحد التجار في السوق، وبالتالي تقتضي الأمانة ألا يفرّط بها.

أما الجرأة فتتطلّب من التاجر أن يكون جريئًا في تجارته؛ لأن التجارة ربح وخسارة.

أما الراء فتعني الرحمة، أي أن هذا التاجر فيما لو أمن وصول هذه المواد، فأصبحت في حوزته فمن غير المسموح أن يحتكرها، بل يقوم بعرضها بالسعر المناسب، وبربح معقول ولا يستفيد من شحّ المواد بالاحتكار، كما يحصل اليوم في بعض الأحيان.

أما اليوم فقد أصبحنا نسمع عبارة: (التجارة شطارة).. وعندما نسأل هؤلاء التجار عن معنى

«أن تكـون رجـل أعـمال شـاطر» نجـد أنّ كلمـة «شـاطر» ينـدرج تحتهـا كثـير مـن التعـاملات غـير الأخلاقية، والبعيدة كل البعد عن المعايير الربانية، وروح الشرع ومقاصده العليا، وتحقيق مفهوم عمارة الأرض، ومراقبة الرب في الأخذ بالأسباب الشريفة بإصلاح النية، ومعاملة المسبِّب، وتحقيق الغايات النبيلة. ومثال ذلك أن يبرّر التاجر «الشاطر» الرشوة بذريعة أنه لا يأخذ حقٌ غيره، وبدونها تتعطل مصالحه، ويبررها بأنه يوازن بين المصالح والمفاسد، ومصلحة عمله تقتضي ذلك، ولا يدري أنه يفسد المجتمع بأسره بعمله هذا، وصدق المجتمع وهو لا يدري عندما أضفى على هذا النوع من التجار اسم التاجر «الشاطر» ففي اللغة العربية الفصحى كلمة شاطر معناها: المتباعد من الخير. أخذ من قولهم: نوىً سُطْر، أي بعيدة. واحتج بقول امرىء القيس:

وشاقك بين الخليط الشطر

وفيمن أقام مع الحي هرّ

وقال أبو عبيدة: الشاطر معناه في كلامهم: الذي شطر نحو الشر وأراده. الزاهر، ١، ١٢٦.

هذا وقد وضع إسلامنا العظيم للتجارة آدابا كثيرة، منها:

- **النية الصالحة:** وهي سبب لتحويل العادات إلى عبادات، وتتمثل في ابتغاء الخير لنفسه وإعفافها عـن الحـرام، وصـيانتها عـن ذل الـسؤال، واتخـاذ التجارة وسيلة لصلة الأرحام وإيتاء ذي القربى، كما تتمثـل في ابتغـاء الخـير للآخـرين بالمـشاركة في بنـاء الأمة حاضرا ومستقبلا، وتحريرها من الاعتماد على الآخرين، وتوفير الحاجات العامة التي يعد توفيرها من فروض الكفايات، وما أشبه هذا بالمقاصد.

- **الخلـق الحـسن:** مثـل الـصدق والأمانـة والوفاء بالعقود وحسن القضاء والاقتضاء وإنظار المعسر، وتجنب المطل في سداد الديون، وإعطاء الحقوق، وتجنب الغش، والتدليس، ونحو ذلك من الأخلاق الفاضلة الحميدة.

- **التعامـل فـي الطيبـات:** فالتاجر المسلم لا يستوي عنده الخبيث والطيب، ولو أعجبه كثرة الخبيث، بل يحل الحلال ويحرم الحرام، ويقف حيث أوقفه الله فلا تستزله لعاعة الدنيا وبريق الربح ليرتكب ما حرم الله عليه.

- **أداء الحقوق دون مَطل أو تسويف:** وعلى رأس ذلك حقوق الله عز وجل في المال من الزكوات المفروضة، ثم حقوق العباد، كأجرة الأجير ودين صاحب الدين.

- **تجنب الربا:** وما كان ذريعة ووسيلة إليه من العقود الفاسدة، فالمرابون محاربون لله ورسوله، والربا من السبع الموبقات، وصاحبه ملعون على لسان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

- **تجنب أكل أموال الناس بالباطل:** فحرمة مال المسلم كحرمة دمه، ولا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب من نفسه، ومن صور أكل أموال الناس بالباطل الغش والتدليس والمقامرة والغرر والاحتكار والرشوة، وما شابه ذلك.

- **تجنب الإضرار بالآخرين**: فالمستثمر المسلم منافس شريف تحكمه في جميع أعماله الاستثمارية قاعدة: لا ضرر ولا ضرار. وهي إحدى قواعد الفقه الكلية التي يندرج تحتها من المسائل ما لا يحصى.

- **موالاة المؤمنين**: فالتاجر المسلم ناصح لأمته، وفيّ لعهدها لا يعاون عليه خصومها، ولا يدخل في استثمار مع أعدائها يلحق بها الضرر.

- تعلم أحكام المعاملات في الشريعة الإسلامية، وهذا يجب الابتداء به قبل كل ذلك، فإن العلم قائد، والعمل تابع. وقد ثبت أن أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه كان يضرب من وجده في السوق وهو لا يعرف أحكام البيع والشراء، ويقول: لا بيع في سوقنا إلا من تفقه في ديننا. والمراد هنا بالفقه الفقه النسبيّ، يعني الفقه في مسائل الحلال والحرام، وليس معنى ذلك أن يكون فقيها في جميع أمور الدين، ولكن المقصود أن يكون فقيها فيما يتعامل فيه.

وقد أمر الإمام مالك بأن يقام من الأسواق من لا يعرف الأحكام؛ لئلا يقع في الربا ويوقع فيه المسلمين. يقول الرهوني في كتابه «أوضح المسالك» نقلا عن أحد شيوخه: إنه أدرك المحتسب يمشي على الأسواق ويقف على كل دكان، فيسأل صاحبه عن الأحكام التي تلزمه في بيعه، ومن أين يدخل عليه الربا، وكيف يتحرز منه، فإن أجابه أبقاه في الدكان، وإن جهل شيئا من ذلك أقامه منه، وقال لا يمكنك أن تقعد في أسواق المسلمين تطعم الناس الربا ومالا يجوز.

وفيما يلي نماذج من تاريخنا العريق للتاجر المسلم الصدوق، فقد أصاب الناس القحط في زمن الصديق رضي الله عنه، فقدمت لعثمان رضي الله عنه ألف راحلة من البُر والطعام، فغدا التجار عليه كلهم يريدون شراءها منه، لا للتكسب ولا للاحتكار لرفع الأسعار، وإنما ليوسّعوا على فقراء المدينة في هذه النازلة، فجعل التجار يساومون عثمان على شراء هذه السلعة، حتى أربحوه بالعشرة خمسة عشر، فأبى وأنفقها في سوق المدينة على الفقراء والمساكين، وربح البيع يا ذا النورين. وصورة أخرى مشرقة من صور حياة تجار سلفنا الصالح، فقد كان محمد ابن المنكدر من معادن الصدق والأمانة، كان له سلع تباع بخمسة، وسلع تباع بعشرة، فباع غلامه في غَيبته شيئا من سلع الخمسة بعشرة، فلماعرف ابن المنكدر ما فعل غلامه اغتمّ لصنيعه، وطفق يبحث عن المشتري طوال النهار... حتى وجده، وكان من الأعراب، فقال له ابن المنكدر: إنّ الغلام قد غلط فباعك ما يساوي خمسة بعشرة، فقال الأعرابي: يا هذا قد رضيت.

فقال ابن المنكدر: وإن رضيت فإنّا لا نرضى لك إلا ما نرضاه لأنفسنا، فاختر إحدى ثلاث:

- إما أن تستعيد مالك وتعيد السلعة.
- وإما أن تُردّ إليك خمسة.
- وإما أن تأخذ من سلعة الخمس سلعة العشر.

فقـال الأعـرابي: أعطنـي خمـسة، فـرد عليـه الخمسة وانصرف؛ فسأل الأعرابي أهل السوق عن هذا التاجر الأمين؟ فقيل له: هذا محمد ابن المنكدر، فقال: لا إله إلا الله، هذا الذي ملأ الآفاق ذكره.

أما الإمام أبو حنيفة رحمه الله، فقد كان والده ميـسورًا، ويعمـل تـاجرًا للقـماش، وكـذلك كـان أبوحنيفة.

ولعل التجارة والتعامل مع أنماط مختلفة من مجتمعه كانت من الأمور التي جعلت الإمام أبا حنيفة يوصف بالأمانة الشديدة، والخلق الكريم. وقد كانت لأمانته صور عدة، وآثار كثيرة، منها أن امرأة جاءته بثوب من الحرير تبيعه له، فقال: كم ثمنه؟ فقالت: مئة، فقال لها: هو خير من مئة، بكم تقولين؟ فزادت مئة ثم مئة حتى قالت: أربع مئة، قال: هو خير من ذلك، فقالت: أتهزأ بي؟ فقال: هاتي رجلًا يقوِّمه، فجاءت برجل فاشتراه بخمس مئة. فما أعظم أمانته! يحتاط لغيره أكثر مما يحتاط لنفسه، وفاء لحق دينه عليه وأمانته، فكان رحمه الله تاجرًا عرف ربه وعرف حقّ مجتمعه عليه، وعرف أن وراءه يومًا لابد أنه صائر إليه ومحاسب فيه على كل ما اكتسبت يداه. إنما كانت أمانته كذلك لأن المال كان في يديه، ولم يتمكن من قلبه، فهو يعلم أن ذلك المال فضل من عند الله، ولذا كان يجعل أرباح تجارته لسد حاجـات العلـماء والمحـدّثين والفقـراء وقـضاء حوائجهم ودفع خلتهم، فيجمع الأرباح من سنة إلى سـنة، فيـشتري بهـا حـوائجهم وأقـواتهم وكـسوتهم ويـدفع بـاقي الأربـاح إلـيهم، ويقـول: أنفقـوا في حوائجكم ولا تحمدوا إلا الله؛ فإني ما أعطيتكم من مـالي شـيئا ولكـن مـن فـضل الله عـليّ فـيكم، وهـذه أرباح بضائعكم؛ فإنه هو والله مما يجريه الله لكم على يدي فما في رزق الله حول لغيره.

رجـل لـو تـشبه بـه كـل تـاجر مـسلم .... ولـو بعشر ما فعل .... لكنا بألف خير .... ولم يبق فقير واحد في المسلمين.

لـذا ينبغـي لجميـع التجـار أن يتـذكروا أن هـذا المـال منحـة مـن عنـد الله جل وعـلا، وقـد هيـأه الله للتجـارة والنـماء، وقـد يكـون ذلـك امتحانـا واختبـارا لـه، ومـن أعطـاه الله هـذا المـال قـادر عـلى أخـذه منـه، فالله اللهَ بالنصح للمسلمين ومراعاة أحوالهم وترك الطمع والجشع.

وختاما فالتاجر القدوة سلعة غابت عن كثير من جوانب حياتنا، وغيابها يمثل خطرا عظيما على المجتمع. ذلك لأنّ التاجر الأمين يمثل وجوده في المجتمـع ركيـزة قويـة وعظيمـة مـن ركـائز الأمـن الاجتماعي، لذا فقد جعله رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في صـفوف النبيـين والـصديقين والـشهداء يـوم القيامة، وهـي أسـمى المنـازل التي ينالها إنسان يـوم القيامـة، ولاشـك أنـه لا ينالهـا إلا مـن كـان عطـاؤه وقيمة عطائه على قدرها.

فهـل يكـون التجـار اليـوم دعـاة بـأعمالهم قبـل ألـسنتهم، حـاملين الهـمَّ الرسـالي كأسـلافهم، داعـين العالمين إلى الإسلام، والمنحرفين إلى التوبة والإنابة؟

النميمة بين الاسترسال.. والاستئصال

بقلم: أ. د./ محمود محمد عمارة

مـن أمراضـنا الاجتماعيـة الخطـيرة: النميمـة.. والتي يتوعـد الحـديث الـشريف صـاحبها بالحرمـان مـن دخـول الجنـة، وفي محاولتنـا تـشخيص العلـة، ووصف الدواء نتساءل:

من النمام؟

ومتى يصير النمام نمّامًا والقتّات قتاتا؟

وما مدى خطورة هذه الرذيلة؟

وكيف تتخلق جرثومتها؟

وإلى أي حد نتحمل مسؤوليتها؟

وما منهج الإسلام المنقذ من ويلاتها؟

كـل هـذه الأسـئلة تحتـاج إلى أجوبـة تجـدها في موضوعنا هذا.

جاء في الترغيب والترهيب:

(الـنمام: الـذي يكـون مـع جماعـة يتحـدثون حديثا، فينم عليهم.

والقتـات: الـذي يتـسمع علـيهم – وهـم لا يعلمون – فينم عليهم).

وأصـل النميمـة: (الهمـس، والحركـة الخفيـة. ومنه: أسكت الله نأمته. أي حسه)[1].

والقت: الكذب المهيأ.

وقـتَّ الـشيء يقُتـه قتًّـا: هيـأه وجمعـه.. قـليلا.. قليلا.

والرجـل القتـات: هـو الـذي يتـسمع أحاديـث الناس. ثم يخبر أعداءهم[2].

وفي بصائر ذوي التمييز:

(الـنم: التـوريش: أي التحـريش والإغـراء. ورفـع الحـديث إشـاعة لـه وإفسادا. ونمـنم الـشيء: زخرفه ونقشه).

وتتضح صورة النمام من خلال هذه النقول: فهـو رجـل مولـع بنقـل الأحاديـث التـي يـسمعها في مجـالس يحـضرها، بـل هـو يتـسمعها.. أي يتكلـف سماعها، ولم تصل إليه تلقائيًّا، فهو في منطق القانون: مجرم مع سبق الترصد والإصرار.

وتتم القصة هكذا:

كلمـة يقولهـا قائـل.. فينقلهـا ناقـل.. فيغـتر بهـا جاهل!

والناقل هنا يدرك خطورة ما يفعل.. بدليل أنه يتحرك سرا. حتى لا ينكشف أمره.. فتفسد خطته.

إنه مجرم مع الترصد، وسبق الإصرار كما قلنا.

ولأن الحركة الخبيثة من قبل النمام لا تنطلق من قاعدة إنسانية.. ولا تستهدف مصلحة؛ بل تتحرى الوقيعة.. فإنه يحاول زخرفة ما ينقله، وتلوينه، ثم

يمحو ما يشاء ويثبت على نحو يتحقق به غرضه الخبيث.. بحيث ينطلي على المنقول إليه. فيشعل الموقف نارًا.

من هو القتات

و«القت» طور متأخر من أطوار النميمة.. تبلغ به الذروة في إرادة الفساد في الأرض.

وربما جاز لنا أن نقول: إن النمام هاوٍ. والقتات محترف.

فالقتات: ليس عضوا في المجلس.. ولكنه يرصده من قريب.. متسمعا راجعا بما يسمعه إلى «غرفة العمليات»ليصوغ منه حديثا آخر.. كاذبا.. مهيأ.. معدًّا للانطلاق كالقذيفة.

على أن يكون ذلك على مهل.. رويدا.. رويدا.

ثم يبلغ الإفساد مداه حين يقع اختياره على الأعداء بالذات. ليخبرهم بما قال خصومهم في حقهم. ليفجر الموقف المتوتر والقابل للاشتعال بحكم العداوة القائمة.

فإذا تصورنا أنه رجل «مزور» بأن لنا كيف يختفي من وراء هذا التزوير ليمارس نشاطه دون أن يفطن له أحد.

من أجل ذلك أجاب «حذيفة» رضي الله عنه: «لا يدخل الجنة قتات» لما قيل له: معنا رجل في المجلس يرفع الأخبار للحاكم. لقد اختار لفظ «قتات» بالذات لخطورة الآصار المترتبة على إعلام الحاكم بما قيل. فهو قادر على التنكيل بخصومه تنكيلا بحكم السلطة المخولة له.

من صور المكر

ومن صور التخفي والتستر.. مما يلجأ إليه بعض الماكرين من النمامين.. عندما يتطوع بالتحدث عما سمع في مجلس ما.. وأمام رجل معروف بنقل الحديث.

وطبيعي أنه يضمن بذلك وصول حديثه عن طريق هذا الرجل المعروف بذلك المرض.. أي بطريق غير مباشر.

وهكذا يختبئ المجرم الحقيقي وراء الستار.. بعد أن ينفث نفثته، وقد يطول الوقت قبل أن يضبط متلبسا بجريمته أو جريرته.

خطورة النميمة

ومن هنا تنبع خطورة القتات أو النمام:

وقد قالوا: الذي يعمله النمام في ساعة لا يعمله الساحر في شهر[٣].

وقد سجل الشعر بعض هذه المخاطر بمثل قول الشاعر:

إن يسمعوا ريبة طاروا بها فرحا

وما سمعوا من طيب دفنوا

ومعنى ذلك أن تلوث البيئة الاجتماعية منوط بهم، من حيث إذاعتهم للشر، ودفنهم لصور الخير. ونسوا أن من سمع بفاحشة فأفشاها فهو كالذي أتاها.. فكيف بمن يتصيد الإشاعات، ثم يقوم بتصديرها كأنها الحقائق؟!

دور الأسرة

ولقد كان للأسرة إدراكها لخطورة النميمة.

فتوالت تحذيرات الآباء للأبناء منها. قال سليمان عليه السلام لولده:

يابني: إياك والنميمة: فإنها أحدٌ من السيف.

وقالت إعرابية لولدها:

عليك بحفظ السر. وإياك والنميمة: فإنها لا تترك مودة إلا أفسدتها، ولا ضغينة إلا أوقدتها.

وإذ تحذر الأم ولدها.. فإنها تحاول أن تقيه ابتداء من شررها، وذلك بحفظ السر الذي هو أساس الداء.. لأنه بضاعة النمام التي يروجها في أسواق العداوة.

وكيف لا تكون النميمة على هذا النحو من الخطورة وهي التي تقطع كل ما أمر الله به أن يوصل:

قال أبو حاتم(٤).

(تهتك الأستار، وتفشي الأسرار، وتورث الضغائن، وترفع المودة، وتجدد العداوة، وتبدد الجماعة، وتهيج الحقد، وتزيد الصد).

وماذا يبقى من روح التناصر الضرورية للأمة في مجتمع هنكت فيه أستاره.. وأُذيعت أسراره؟ وكيف ترقى أمة وفيها ذلك «الطابور الخامس» الذي يئد الخير في مهده، ثم يصفق للشر ليستعلي ويتحكم؟

النميمة على لسان الشعراء

كان للشعر دوره في التنديد بالنمامين:

قال أحدهم:

من نم في الناس لم تؤمن عواقبه
على الصديق. ولم تؤمن أفاعيه
كالسيل بالليل.. لا يدري به أحد
من أين جاء ولا من أين يأتيه
فالويل للعهد منه كيف ينقضه
والويل للود منه كيف يفنيه

بل إن الأمر لا يقتصر على نقض العهد فيما ائتمن على كتمانه.. ولكنه يحاول اختلاق الأحاديث ليرمي بها الأبرياء.. فإذا علم خيرا فإن طبعه الخبيث لا يطاوعه على نشره.. لأن من شأن ذلك إشاعة جو من الطهر، وهو بخبثه غير مهيأ للعيش في المجتمع الطهور، والذي يحاول تلطيخه بما يخترع من أكاذيب:

يمشون في الناس يبغون العيوب لمن
لا عيب فيه. لكي يستشري العطب
إن يعملوا الخير يخفوه وإن علموا
شرا أذاعوه.. وإن لم يعلموا كذبوا

لقد صار البهتان عاطفتهم السائدة.. وقد يموت فيهم الضمير فلا يندم يوما على ما فعل.. بل قد يندم على فلتة لسانه الذي تحرك يوما بالخير.

يقول الشاعر:

تمشيت فينا بالنميم وإنما
تفرق بين الأصفياء النمائم
ومازلت منسوبا إلى كل آفة
ومازال منسوبا إليك الملائم
لأنك لم تندم لشر فعلته
وما تأت من خير فإنك نادم!

وصدق العليم الخبير حين يقول:

﴿وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٖ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ ۝١١ مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢﴾ (القلم:١٠-١٢).

منهج الإسلام في الإصلاح

من هم أطراف النزاع في جريمة النميمة؟

وما هو منهج الإسلام في تلافي آثارها؟

أما أطراف النزاع فهم:

أ- منقول عنه.

ب- ثم الناقل.

ج- ثم المنقول إليه.

د- مجلس تتم المعصية على مرأى منه ومسمع.

الحل الإسلامي

نقرأ في ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾ (الحجرات:٦).

روي أنه عليه الصلاة والسلام بعث الوليد بن عقبة ليجمع الصدقة من بني الصطلق – وكان بينه وبينهم إحنة – فلما سمعوا به استقبلوه. فحسبهم مقاتليه.

فرجع وقال لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قد ارتدوا ومنعوا الزكاة. فَهَمّ بقتالهم.

وقيل: بعث إليهم خالد بن الوليد. فوجدهم منادين بالصلاة متهجدين. فسلموا إليه الصدقات. فرجع(٥).

ونتلمس ملامح المنهج الإسلامي في الإصلاح:

١- كانت هناك عداوة قديمة بين الوليد وبني المصطلق.. وكان لها بالتالي دورها في الحكم المتسرع.

٢- أدانته الآية الكريمة إدانة دامغة بالفسق لكل من سلك هذا المسلك المسارع إلى الاتهام.

٣- تحميل المنقول إليه مسؤولية تصديق الخبر من دون بينة.

٤- ضرورة التثبت حماية لكرامة الناس الغائبين الذين لا يملكون الدفاع عن أنفسهم.

وعلى هذا الأساس القرآني اتجه الفكر الإسلامي إلى الإصلاح بوسائل منها:

بيان الجذور النفسية والأخلاقية التي تحول دواعي النميمة

ثم.. توضيح مسؤولية أطراف القضية جميعا.. ليكون التحذير عاما، وليس خاصا بالناقل وحده كما يظن بعض الناس اليوم حين يبرزون دور الناقل النمام في إفساد ذات البين متجاهلين سكوت بقية الأطراف الذين هَيَّؤوا للنمام طريقه لينفذ جريمته.

أما عن أسباب النميمة:

تعود النميمة إلى أسبابها الحاملة عليها ومنها:

أ- ضعف الوازع الديني.

ب- التنافس بين الأقران والذي يتطور بالعناد إلى حسد مدمر.

ج- عدم إدراك النمام حجم جريمته وما يترتب عليها من آثار. ذلك بأن النميمة داء خفي يسري كالسم لا ترى آثاره بالعين المجردة.

د- خلو المجلس من شجاع يردع النمام قبل أن

يستفحل خطره.

هـ - عدم إدراك المسلم لمسؤوليته المباشرة في الدفاع عن عرض أخيه الغائب.. وأن إهمال ذلك يعرضه شخصيًّا لنفس الموقف الذي سيخذل فيه ولا يجد له نصيرا، وعجيب أمر الناس:

لو رأوا من يسرق «جنيها»من أخيهم.. قبضوا عليه ولكن لو سرق عرضًا فإنهم يسكتون، وربما كان السكوت منهم رغبة في الاستماع، أو في الاستمتاع!

و- ومن وراء ذلك كله: كيد الشيطان الذي لا يمل من التحريش بين المسلمين لتقر عينه بتمزيق وحدته. وجعل غزلهم من بعد قوة أنكاثا.

ز- ومن أسباب النميمة أيضا استرسال المنقول إليه في الاستماع، فيغري النمام بالمزيد.

ح- استهتار المسلم وعدم احتفاظه بأسراره التي يبوح بها ومن ثم تستغل ضده.

أما عن عموم المسؤولية:

لما كانت السمؤولية مشتركة فمن العدل أن يتحمل الأطراف جميعا نتائجها.. وهذا ما فعله الإسلام الذي لم يكتف بمجرد الاتهام.. وإنما شخص المشكلة واضعا في الوقت نفسه أسباب الخروج منها:

أما بالنسبة للمنقول عنه:

فهو مأمور بحفظ أسراره. حذر انتشارها.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «استعينوا على الحوائج بكتمان السر. فإن لكل نعمة حاسدا»(٦).

وقد قيل:

إذا بحت بسرك للرياح.. فلا تلمها إذا نقلته إلى الأشجار!

وأنت الملوم إذن. على حد قول الشاعر:

تبوح بسرك ضيقا به
وتبغي لسرك من يكتم
وكتمانك السر ممن تخاف
ومن لا تخافه أحزم
إذا ذاع سرك من مخبر
فأنت وإن لمته ألوم

وإلى هذا المعنى أشار الشاعر:

إذا ضاق صدر المرء عن بعض سره..
فألقاه في صدري فصدري أضيق
ومن لامني في أن أضيّع سره...
وضيعه قبلي.. فذو السر أخرق

أما بالنسبة للناقل.. وهو النمام:

فقد رَهّبه الإسلام إرادة فطمه عن رذيلته:

يقول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ:

«.. ومن استمع إلى حديث قوم هم له كارهون، صب في أذنيه الآنك يوم القيامة»(٧).

والآنك: الرصاص المذاب.

وإذ يحذر صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من التنصت ومن نقل الحديث على فرض صحته، فكم يكون الجزاء لما اختُلق الحديث اختلاقا؟

قال صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ:

«ليس مني ذو حسد. ولا نميمة. ولا كهانة.. ولا أنا منه». ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾[٨] (الأحزاب:٥٨).

وفي التحذير من هذا المسلك المعيب نقرأ قوله تعالى: ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ۝١١ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ (القلم:١١-١٢).

لقد صار قلب النمام أطلالا ينعق فيها البوم ولا يرف فيه ظل للخير.

بل إنه واقف بالمرصاد حتى لا يبسط الخير جناحه.

بل هو «مناع» للخير يبذل كل جهده حتى لا يقترب من ساحة المجتمع.

وقد تأملت حال الناس فوجدت تسعة أعشار الخصومات بينهم راجعة في أسبابها إلى رجل واحد.. نفث بينهم.. فكان الفراق.. ثم الشقاق.. ثم الدم المراق!

أسوة في حفظ اللسان

ذهب الصوفي سهل بن عبد الله لزيارة أبي داود الفقيه.

فقال له سهل:

لي إليك حاجة. قال: وماهي؟

قال سهل: لا أذكرها حتى تعد بأن تقضيها. إذا أمكنك الله تعالى.

فقال أبو داود: إن شاء الله تعالى.

قال سهل: إني أرى أن أطهر لسان هو الذي حجبة صاحبه عن اللغو. وشغله بكتاب الله. وحديث رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا اللسان هو لسانك.. وحاجتي هي: أن تسمح لي بتقبيل هذا اللسان. الذي أكرمه الله وهداه إلى حفظ السنة المطهرة بالرواية الصادقة.

ووافق أبو داود، ومكن صاحبه الصالح من تقبيل لسانه.

قاطع الطريق

وإذا كان للمغتاب من عذر حين يشتم صاحبه في غيبته أحيانا.. شتما قد يشفي صدره ليحسم من بعد التعامل معه.. فما للنمام ونقل الكلمة بطريقته الخاصة فيقطع على المغتاب التائب طريق العودة إلى الصفاء القديم مع صاحبه؟

وما أكثر الذين يتعرضون للظلم يقع عليهم من غيرهم.. ومن حقهم أن يشتكوا يوما شفاء لغيظ مكتوم.

لكن قطاع الطريق: لا هم يساعدونهم في رفع الظلم الواقع.. ولا يعطونهم الحق في أن يتألموا!!

وهذا الصنف من الناس يبلغ من الشر مداه:

قال ﷺ: «شر عباد الله: المشاؤون بالنميمة. المفرقون بين الأحبة. الباغون للبراء العيب»[٩].

وإذا عزل النمام هكذا في الدنيا فلم يكن له شرف الانتماء إلى رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا إلى أمته.. فإن عذابه مستمر: في القبر.. وفي الآخرة.

أما في القبر: فـ«عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مر بقبرين فقال:

إنهما يعذبان. وما يعذبان في كبير. بلى إنه كبير: أما أحدهما فكان يمشي بالنميمة، وأما الآخر: فكان لا يستتر من بوله»(١٠).

والحديث الشريف يشير إلى تساهل بعض الناس في تناول هذه الرذيلة، والتي تجري على ألسنتهم دون إحساس بآثارها المرة. مؤكدا أنها عكس ما يظنون خطر عظيم.. لا يكاد مدمنها يموت. حتى تبدأ رحلة العذاب.. الذي سوف يكون تمهيدا لعذاب أكبر وأطول: «إن النميمة والحقد في الناس. لا يجتمعان في قلب مسلم»(١١).

وإلى جانب هذه التحذيرات.. فقد كان له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ موقف عملي يتصدى لنوازع الشر.. حتى لا تبرز إلى الوجود ليظل محتفظا بحبه لأصحابه دائما: وأيضًا تعليمًا لأمته:

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال.. قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا يبلغني أحد من أصحابي عن أحد شيئا. فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر»(١٢).

وفي ضوء هذا الحديث ينبغي أن يحاسب الناقل نفسه؛ بل عليه أن يناقشها الحساب.. لقد كان أمامه عدة اختيارات:

أ- أن يدافع عن صاحبه المشتوم في المجلس.. وتنتهي مهمته.

ب- أو على الأقل يغادر الجلسة مظهرا غضبه ورفضه لما قيل مبرزا ما يعمله عن المشتوم من أخلاق فاضلة تنفي ما يقال في حقه، أو على الأقل تخفف اللوم عنه.

ج- أن ينقل الحديث كما سمعه..

د- أو يتزيد فيه مكرا وخداعا.

وإذن.. فلماذا تخلى عن دوره كصديق حميم.. ينصر أخاه بظهر الغيب.. واختار أسوأ الاحتمالات.. بهذه الوقيعة المبيتة؟

إن اختيار النميمة حينئذ هبوط إلى أسفل.. فلا أنت بالذي دافع عن صاحبه.. ولا أنت بالذي كتم السر حفاظا على ود قد يعود بين الاثنين.. بشرط أن تبتعد أنت عنها!

أما بالنسبة للمنقول إليه فهناك حقيقتان ينبغي ألا تغيب عن هذا الذي نقل إليك الحديث، وأوشى به لدى سلطان أو غيره:

* الحقيقة الأولى: أن من نقل إليك.. نقل عنك.. لأنه لا ينم الحديث حبا فيك.. وكراهية لغريمك.. وإنما هو من قوم يشفي غليل صدورهم أن تصرعوا.. وإذن فهو عدو مشترك بينكما.. فلا تسمع منه. وإذا ظننت فلا تحقق.

* الحقيقة الثانية: أن الذي ينقل إليك إنما يشتمك أنت.. فأنت لم تسمع من الغائب، وإنما سمعت من هذا الناقل والذي يشافهك بما عابك به القائل.

جاء في روضة العقلاء: من وشى بالشيء إلى إنسان بعينه، يكون قصده إلى المخبر أكثر من قصده إلى الخبر به لمشافهته إياه بالشيء الذي يشق عليه علمه وسماعه.

ولقد أحسن الذي يقول:

من يخبرك بشتم عن أخ
فهو الشاتم.. لا من شتمك
ذاك شيء لم يشافهك به
إنما اللوم على من أعلمك
كيف لم ينصرك إن كان أخا
ذا وفاء عند من قد ظلمك
إنما رام بإبـلاغ الـــذي
نم فيه – فاعلمن – أن يرغمك
فأهنه.. إنـه من لؤمـــــه
إن تهنـــه بهـــوان أكـرمك
لكن الحر إذا أكرمتـــــه
لم يصغـــرك ولكـــن فخمك

مسؤوليتنا.. في مواجهة النميمة

إذا اسـتطاع الـنمام أن يقـوم بعمليـة اخـتراق الصف المتماسك بما ينقله إليك من حديث مسموم فإن واجب الأخوة يحتم عليك القيام بهجوم مضاد يحبط مفعـول كلمـة مريـضة يلـوح بهـا الوسـواس الخناس من الجنة والناس:

ولقد لخص علماؤنا ما يجب على المستمع في مواجهة النمام فيما يلي:

١- عـدم قبـول كلامـه.. فهـو شـهادة مـردودة عليه؛ لأنه فاسق.

٢- نهيه عن هذا المسلك الخبيث.

٣- بغض النمام في الله.

٤- ألا يظن السوء بأخيه المسلم الغائب.

٥- ألا يتجسس محاولا التأكـد مـن صـحة مـا سمع.

٦- أن يكتم ما سمعه.. حتى لا ينتشر فيحقق مآرب النمام.

وكـان ذلـك مسلك العـارفين بطبيعـة النفـوس دائما:

كانـت العلاقـة بـين «حـاتم الطـائي»وزميلـه في الكـرم «أوس بـن حارثـة»مـضرب المثـل في القـوة والثبات.

وقرر صديقهما النعمان أن يعرّض هذه العلاقة لامتحان عسير.

فقال: والله لأوقعن بينهما!

فذهب إلى أوس وقال:

يزعم حاتم أنه أفضل منك.

فقال أوس:

صدق.. إن حاتما كريم جواد.. ولو ملكني أنا وعيالي وأهلي لتصدق بنا في يوم وليلة!

ولمـاذا ذهـب إلى حـاتم لينقـل إليـه ادعـاء أوس أنه خير منه.. قال حاتم: صدق والله! إن له عشرة أولاد.. أقلهم أفضل مني!!

ويعـود الـصديق بحقيقـة تفـرض نفسـها.. هـي: أنـه لم يـر أفـضل مـن الاثنين معـا! وربـما عـاد إلى بيتـه بقراره الحاسم: ألا يجدد التجربة بعد ذلك أبدا.

إن عنصر المنافسة في مجال العلم، أو التجارة. أو الشرف. كثيرا ما يحمل على كتمان الحق.. إلى حد يحاول المنافس التفرد بالفضل وحده.

وقـد يعظـم الإحـساس بالـذات تحـت ضـغط التنـافس إلى كـتمان فـضائل الآخـرين.. والتعـريض بهـم.. مـا يعـرض الفـضيلة نفسها لخطر الاهتزاز في أعين العامة.

لكن حاتمًا ورفيقه.. لقنا النمام درسا لا ينسى.. ثـم برهنـا عـلى أن اليـد السخية المبسوطة بالعطـاء.. تستمد طلاقتها من قلب نظيف.. ولسان عفيف!

ولقـد أطلـع الإسـلام عـلى هـذا الخلـق الجميـل فزاده رسوخا وجمالا:

فقد وقع بين «الحسن» وأخيه «محمد ابن الحنفية» خلاف.. ومشى بعض الناس بينهم بالنمائم:

فكتب ابن الحنفية إلى أخيه الحسن يقول:

أما بعد:

فإن أبي وأباك: علي بـن أبي طالـب لا تفـضلني فيه. ولا أفضلك.

وأمي: امرأة من بني حنيفة.

وأمك فاطمة الزهراء. بنت رسول الله ﷺ.

فلـو ملئـت الأرض بمثـل أمـي.. لكانـت أمـك خيرا منها.

فـإذا قـرأت كتـابي هـذا فأقـدم حتـى تترضـاني.. فإنك أحق بالفضل مني!!

ولقـد كـان المتوقـع أن يبـدأ ابـن الحنفيـة أخـاه بالزيـارة.. وهـو صـاحب مبـادرة السـلام هنـا ليـذهب دون أخيه بالفضل!

لكنـه لم يفعـل، ووقـف بأخيـه حيـث رشـحته للفضل أصوله الفاضلة.

وقبـل أن يتقـول الحـساد الأقاويـل.. وحتـى لا تظـل الثغـرة مفتوحـة بـين الاثنـين ليـدخل منهـا المغرضون.

أي أن العـدل الملحـوظ في قـصة حـاتم مـع أوس.. يصير في ظل الإسلام فضلا وإيثارا.. يقطع الألسنة فلا تحاول التشهير.

صحبة الصالحين.

ومـازال في أمتنـا رجـال صـدقوا ماعاهـدوا الله عليه، فلـم يمكنوا منهـم نمامـا.. لمـا واجهـوه بالقسوة الحازمة فأحبطوا عمله، ومنهم ذلك العالم الذي قيل له:

إن فلانا شتمك! فأجابه على الفور:

أما وجد الشيطان بريدا غيرك؟!

ولا يبقـى بعـد ذلـك إلا الخطـوة العمليـة الأخيرة.. وهي أن يعلن المنقول عنه.. والمنقول إليه الصلح.. ففي صلحهما هلاك النمام.

وإذا لم تتم هذه الخطوة العملية، وبقي الطرفان متباعدين فسوف تتاح للنمام فرصة أخرى لاستئناف محاولـة القطيعـة.. وحينئـذ يتـسع الخـرق، ويتعقـد الموقف ليكون الأمر على ما قال الشاعر:

نبآني يا نخلتيّ حلوان

واذكرا لي من ريب هذا الزمان

واعلما – إن بقيتما – أن نحسا

سـوف يأتيكما فتفـترقان

وفي ذات يوم دفع رجل إلى الصاحب بن عباد برقعة ليأخذ مال يتيم، وكان كثيرا فكتب الصاحب

على ظهرها: النميمة قبيحة، وإن كانت صحيحة.. والميت رحمه الله.

واليتـــيم.. جـــبره الله ... والـــذي يـــسعى بالنميمة.. لعنه الله.. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

الذين يحاكمون أنفسهم

وقد بلغت حساسية هذا النفر الكريم حدا حملهم على الاستغفار للغائب الذي لا يملك الدفاع عن نفسه.. من كل ما يُظن أنه مضر به. مما لا يكاد يخطر على بال أحد من عامة الناس:

كان عابد مريضًا ينفق على مرضه.

فما عز الدواء وأفلس قيل له: اقترض من فلان.

فقال: أنا أتورع عن مالي الذي قد أظن به شبهة. فكيف بهذا المال الذي لا علم لي به مطلقا.

لكنه ظن أنه قد عرض بها الرجل الغائب..

فقال للحاضرين:

استغفروا له، ثم قال: ربما كنا اغتبناه بهذا الذي قلناه!

وفي مجالسة هؤلاء العارفين ما ينشئ في النفوس عادة التثبت قبل المجازفة بحكم لم تتوافر دلائله.. فيسلم العقل من التسرع والتهاون بأقدار الناس.

ضرورة المواجهة

ومن واجب المنقول إليه أن يعقد مواجهة بين الناقل والمنقول عنه على نحو تتبين به الحقائق على أرض مكشوفة.. يصفو بعدها الود. ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيَّ عن بينة:

وشى واش بعبد الله بن همام السلولي إلى زياد.

قال: فبعث زياد إلى ابن همام.

فجاء، فأدخل الرجل بيتا، فقال له زياد:

يا بن همام: بلغني أنك هجرتني.

فقال له: كلا أصلحك الله! مافعلت.

وما أنت لذلك أهل.

قال: فإن هذا أخبرني – وأخرج الرجل – فأطرق ابن همام هنيهة ثم أقبل على الرجل فقال:

وأنت امرؤ: إما ائتمنتك خاليا

فخنت. وإما قلت قولا بلاعلم

فأنت من الأمر الذي كان بيننا

بمنزلة بين الخيانة والإثم

قال: فأعجب زياد بجوابه وأدناه وأقصى الساعي ولم يقبل منه.

ولهذا الإجراء السريع الحاسم أثره في ردع النمامين:

فقد أعلن على الملأ كذبه.. ما حذر الناس منه.. ومن ثم زال خطره.

ولقد كان الليث أذكى من ابن همام:

فقد سعى رجل بالليث بن سعد إلى والي مصر. فبعث إليه فدعاه فلما دخل عليه قال له: يا أبا الحارث إن هذا أبلغني عنك كذا وكذا.

فقال له الليث: سله – أصلح الله الأمير – عما أبلغك؟

أهو شيء ائتمناه عليه. فخاننا فيه؟ فما ينبغي

لك أن تقبل من خائن!

أو شيء كـذب علينـا فيـه.. فـما ينبغـي لـك أن تقبل من كاذب.

فقـال الـوالي: صـدقت يـا أبـا الحـارث! فكـان درسا للناقل والمنقول إليه معا!

ولقـد كـان عمـر بـن عبـد العزيـز أسـدى رأيـا وأصدق لهجة مع واحد من مدرسة الواشين:

قال له رجل: إن فلانا يسبُّك في الأسواق.

فقال له عمر: اسمع يا هذا!

هنالك قوم يسبون الواحد الخلاق.. ثم أنت تسمعهم كما يسمعهم غيرك.. تدعهم وشأنهم!

فإن رأيت أحدا من مثل هؤلاء: فأسر إليه النصيحة.. واعفني من هذا النفاق!!

إن رغبـة الـواشي هنـا ملحـة أنسته بإلحاحها حقيقة لا تقبل النسيان.

وهـو وأمثالـه يمـرون عليهـا وهـم عنهـا معرضون.

فـما أكثـر الـذين يـسيئون الأدب مـع خـالقهم سبحانه ومع ذلك لا تتحرك شعرة في رأس غيور.. فـإذا قـصروا في حـق الخـالق.. وهـزهم أن يـشتم المخلوق.. فهو النفاق في أوضح صوره.

والحل العملي هو ما لقنه الخليفة:

أن يباشر الناقل وظيفته مع الشاتم نفسه أولا دفاعا عن أخيه المسلم بظهر الغيب.. وعندئذ تنتهي مهمته.

أمـا نقـل المعركـة إلى مجلـس المـشتوم.. فهـي الغفلة عن الحقيقة الكبرى والتي لفت الخليفة نظره إليها، وهـي أمـارة رغبـة مـن الـواشي في الإفـساد لا تخفى على أحد.. وعليه من الآن أن يصحح خطأه بنصح الوشاة نصحا يفر به من وصمة هذا النفاق!

قبول الاعتذار

من شيم الأحرار قبول الاعتذار..

يقول الشاعر:

إذا اعتذر الصديق إليك يوما

من التقصير عذر أخ مقر

فصنه عن جفائك واعف عنه

فإن الصفح شيمة كل حر

لقـد أتـاك معترفـا بخطئـه.. منقـادا إليـك عـلى الأقـل بظـاهر حالـه.. وهـو خـير ممـن آذاك تحـديا.. واستهتارا.

* * *

المراجع:

(١) المصباح المنير.

(٢) لسان العرب.

(٣) راجع روضة العقلاء لابن حبان.

(٤) راجع روضة العقلاء لابن حبان.

(٥) راجع تفسير البيضاوي.

(٦) ابن حبان.

(٧) من حديث لابن عباس الترغيب والترهيب فصل الترهيب من أن يستمع حديث قوم.

(٨) رواه الطبراني.

(٩) رواه أحمد.

(١٠) متفق عليه.

(١١) رواه الطبراني.

(١٢) رواه الترمذي وأبوداود.

حروف المعاني

بقلم: الدكتور/ عبد العزيز بن عبد اللَّه العمار حفظه اللَّه

تنقسم الحروف قسمين: حروف معانٍ، وحروف مبانٍ، فأما حروف المعاني فيُعرف المراد منها من لفظها، فهي حروف جاءت لتدل على معنى معين، كحروف العطف والجر وغيرهما، فلكل حرف معنى ليس في الآخر، فـ(الواو) مثلًا تفيد الاشتراك، و(الفاء) تفيد التعقيب، و(ثم) تفيد التراخي، وهلم جرًّا، أما حروف ا لمباني فهي تلك الحروف التي تُبنى منها الكلمات، وتتكوّن منها أجزاؤها، وهي حروف الهجاء، فهي حروف مبانٍ؛ لأنها لَبِنات الكلمات، فهذه الحروف تدخل في بنية الكلمة، فإذا فُصل الحرف عن بقية الحروف التي تتكوّن منها الكلمة لم يدل على شيء، وهذا بخلاف حروف المعاني فإن لكل حرف معنى منطويًا تحته.

وقد اهتم العلماء بحروف المعاني، فذكروا تلك الحروف ومعانيها، وشواهدها، يتضح هذا الاهتمام من خلال أمرين:

الأمر الأول: ورود مقولات لهم في التنويه بشأنها، وبيان أهميتها، ومن ذلك قول الخطابي: «وهذا باب عظيم الخطر، وكثيرًا ما يعرض فيه الغلط، وقديمًا عُني به العربي الصريح»[1]، ويقول فيه ابن الأثير: «هذا موضع لطيف المأخذ، دقيق المغزى... وهو موضع من علم البيان شريف، وقلما يُتفطن لاستعماله كما ينبغي»[2].

الأمر الثاني: إفراد هذه الحروف بالتصنيف والتأليف، كما ذكر العلماء معانيها وشواهدها، موضحين كذلك أسرارها في مواقعها في النصوص القرآنية، والأبيات الشعرية، ومبينين عمل كل أداة، وذاكرين المهمل منها كذلك، ومن العلماء مَن خصها بالتأليف، ومنهم مَن ذكرها من غيرها.

ومن العلماء الذين ألفوا في هذه الحروف، وذكروا معانيها، وأسرارها البلاغية:

١- **ابن قتيبة:** فقد عقد في كتابه (تأويل مشكل القرآن) بابًا لهذه الحروف، سمَّاه (باب تفسير حروف المعاني وما شاكلها من الأفعال التي لا تنصرف)، ثم أَخذَ في ذكر معانيها، وذكر الشواهد لها، ثم ذكرَ بعده فصلًا له ارتباط وثيق بحروف المعاني بعنوان (باب دخول بعض حروف الصفات مكان بعض)، ذكرَ فيه أن هذه الحروف قد تأتي في مكان البعض الآخر، ثم ذكرَ الشواهد على ذلك من القرآن الكريم، والشعر العربي.

٢- **الرماني:** فقد ألفَ في هذه الحروف كتابًا، سمَّاه (معاني الحروف)، ذكرَ فيه الحروف ومعانيها،

مبينًا العامل منها والمهمل، وقد قسَّم هذه الحروف من حيث تركيبها، فذكرَ – أولًا – الحروفَ الأحادية، ثم الثنائية، ثم الثلاثية، ثم الرباعية، ذاكرًا معنى كل حرف، وشواهدَه من القرآن الكريم، ومن لغة العرب.

٣- **ابن جني:** فقد ذكرَ في كتابه (سرّ صناعة الإعراب) أسماء الحروف، وأجناسها، ومخارجها، ثم ذكرَ كل حرف على حِدة من الألف إلى الياء، مبينًا صفاته الخاصة به، والمعاني التي يأتي عليها، موضحًا ذلك كله بالشواهد المختلفة من القرآن الكريم، ومن لغة العرب شعرًا ونثرًا.

٤- **المالقي:** له كتاب في ذلك (رصف المباني في حروف المعاني)، ذكرَ في مقدمة الكتاب أهمية هذه الحروف، وقد رتَّبها على حروف المعجم، بداية بالألف والهمزة، ونهاية بالياء، ذاكرًا معنى كل حرف وشواهده.

٥- **المرادي:** ألَّف في ذلك كتابًا سمَّاه (الجنى الداني في حروف المعاني)، ذكرَ في المقدمة إجمالي عدد ما بلغته معاني الحروف وأقسامها، ثم ذكرَ هذه الحروف على حسب تراكيبها فذكر الحروف الآحادية، والثنائية، والثلاثية، والرباعية، والخماسية، ذاكرًا الحروف التي تنطوي تحت كل قسم، ومعانيها، وشواهدها.

٦- **الزجاجي:** وكتابه في ذلك هو: (كتاب حروف المعاني والصفات)، ذكرَ في المقدمة أن سبب تأليفه للكتاب: أن سائلًا طلب منه أن يضع له كتابًا يشرح له فيه جميع معاني الحروف، فأجابه المؤلف بذكر الحروف ومعانيها، ذكرها من غير أن يراعي فيها الترتيب على حروف المعجم، ومن دون النظر – كذلك – إلى تراكيبها، وعدد حروفها، فقد بدأ الكتاب بـ(عند)، وختمه بـ(الباء)، وكان يذكر معنى كل حرف، ويدعم ذلك بالشواهد أحيانًا، ثم ختمَ كتابه بالحروف التي تأتي مكان حرف آخر، مبينًا ذلك بالشواهد من القرآن الكريم، ومن الشعر العربي.

٧- **الهروي:** فقد ذكر في كتابه (الأزهية في علم الحروف) الحروفَ ومعانيها، وأحكام كل حرف، والأوجه التي يأتي كل حرف عليها، ذكرَ ذلك كله بالشواهد المختلفة من القرآن الكريم، ومن الشعر، ثم ختمَ كتابه بالحديث عن دخول حروف الخفض بعضها مكان بعض.

٨- **ابن هشام:** فقد عقدَ في كتابه (مغني اللبيب) بابًا للحروف، وذكر معانيها، وقد رتَّبها على حروف المعجم؛ ليسهل تناولها، فذكر معنى كل حرف وشاهده، والمعاني التي يخرج إليها بشواهدها.

وغير هؤلاء العلماء الكثير والكثير، فقد عُني العلماء بالحروف عناية بالغة، واهتموا بها اهتمامًا فائقًا، يدل على ذلك ما أفردوا لها من تصانيف، فقد ذكرَ محققا كتاب (الحروف) للمازني[٣] أنهما حين عادا إلى كتب التراجم، وما نُشر من كتب الحروف وجد أن المؤلفات في هذا الباب عسر حصرها، وذكرا أن ما وقفا عليه يزيد على الأربعين كتابًا.

وقـد كـان تـأليف العلـماء في هـذه الحـروف ومعانيها على أضرب مختلفة، فمن العلماء من كان يذكر هذه الحروف على حسب تركيبها ووضعها، ويمثل هؤلاء: المرادي، ومنهم من كان ينطلق في ذكرها من حيث الإعمال والإهمال لهذه الحروف، كالرماني، ومنهم من كان لا يتقيد بشيء من ذلك؛ بل كان يذكر هذه الحروف كيفما اتفق، كالزجاجي، ومنهم مَن كان يذكرها مرتَّبة على حروف المعجم، كالمالقي، وابن هشام، ومنهم مَن كان يُفْرِدُ بعض هذه الحروف بالتأليف ككتاب (الألفات) لابن خالويه، و(اللامات) لابن فارس، وإنْ اختلف العلماء في التأليف في هذه الحروف على أضرب مختلفة، وأوجه متعددة فهم متفقون جميعًا على أهمية هذه الحروف، وعلو قدرها، ومكانتها في اللغة العربية.

وقد جاء اهتمام العلماء بهذه الحروف إدراكًا منهم: «أن لهذه الحروف لطائفَ وأسرارًا لا تظهر إلّا بوجودها في التراكيب اللغوية، فبها يتم مختلف الأساليب البلاغية، كالنفي والتوكيد والاستفهام وغيرها، وذلك أن هذه الأساليب وغيرها تفتقر إلى وجود حروف المعاني، فبها تقوّم أركانها، ويتم بنيانها، وبدونها تتهاوى الأركان، ويسقط بناء هذه الأساليب، كما أن اللغة بدونها تفقد روعتها وجمالها، فلا سلامة للتعبير اللغوي إلّا بوجودها»(٤).

ولم يكن الاهتمام بهذه الحروف مقصورًا على علماء اللغة والنحو والبلاغة؛ بل شاركهم في ذلك علماء الفقه وأصوله؛ وذلك لارتباط حروف المعاني الشديد بهذين العلمين، فقد يترتب على هذه الحروف حكم شرعي من خلال دلالة هذا الحرف، وإيثاره على الحروف الأخرى بما تضمن من دلالة وإيحاء؛ «ذلك أن حلول حرف مكان آخر قد يترتب عليه حكم مكان حكم، كما أن تقدم الحرف قد يترتب عليه حكم يخالف حكم تأخيره، ومن هنا وجب على من يتصدى للفتوى أن يدقق في الألفاظ، وخاصة في حروف المعاني حتى تكون فتواهم موافقة للشرع»(٥).

يدل على أهمية هذه الحروف وتعلقها بالحكم الشرعي أن بعض العلماء أفردوها بالتصنيف مبينين أثرها في الحكم الشرعي، وشدة تعلقها به، مُؤْرِدين المسائل الفقهية الكثيرة التي يختلف فيها حكمُها الشرعي باختلاف حروف المعاني(٦).

وبعد: فهذا شيء من جهود العلماء في حروف المعاني، ويتضح مما ذُكر من العلماء أن أكثرهم من اللغويين والنحويين، وأن أكثر جهدهم قائمٌ على الجمع والحصر لتلك الحروف ومعانيها، وذكر شواهدها، من غير أن يذكروا السرَّ الكامن خلف هذه الحروف، ومن دون الإشارة – كذلك – إلى لطائف مجيء بعض الحروف مكان بعض، ولكن حسبنا من هؤلاء العلماء – رحمهم الله – ذلك العمل، فقد قام بهذا العمل كثير من المفسرين والبلاغيين، فكانت لهم وقفات مع هذه الحروف، فقد بينوا كثيرًا من دقائقها ولطائفها، وأسرارها

البلاغيـة، وقـد أوضـحوا مـن خـلال تلـك الوقفـات البلاغيــة أن المعنــى يــرتبط ارتباطًــا وثيقًــا بهــذه الحـروف، وبتغير هـذه الحـروف يتغير معهـا المعنى كله، دلالة على أن لكل حرف معنى يقوم به دون غيره من بقية الحروف، مما يقطع بدقة هذه اللغة، وسمو قدرها، كما أن هذا دليلٌ على إعجاز القرآن وبلاغته في اختياره لحروف المعاني التي تحقق المعنى المراد دون غيرها من الحروف.

ومـمـا ذكــروا في ذلــك: الإشــارة إلى الأسرار البلاغية الكامنة في المخالفة بين هذه الحروف فيما بينها، فقد نظروا في قول الله - تعالى -: ﴿وَإِنَّـآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ (سبا:٢٤)، فكان مما استرعى أنظارهم في ذلك أن حروف الجر (على) جاء مع صاحب الهدى، وأن الحرف (في) جاء مع صاحب الضلال، وكما هو مقرر في اللغة العربية أن حرف الجر (على) يفيد الاستعلاء، وأن حرف الجر (في) يفيد الظرفية والوعاء، فذكروا أن السرَّ البلاغي الكامن في هذه المخالفة بينهما هو: أن صاحب الحق؛ لقوة أمره، وظهور حجته فكأنه مستعلٍ على جواد، يركض حيث يشاء، وأما الضال فهو منغمس في ظلام دامس، لا يدري أين يتوجه، ولا كيف يفعل، فقد أحاطت به الضلالة من كل جانب إحاطة السوار بالعصم(٧).

وهكذا جاء الفعل مع صاحب الحق، مُعَدًّى بـ(على) الدالة على الاستعلاء؛ إشارةً إلى كون صاحب الحق مستعليًا دائمًا على نفسه، وعلى أعدائه، كما جاء الفعل مُعَدًّى بحرف الجر (في) الدالة على الظرفية مع صاحب الضلال؛ دلالة على أن هذه هي حالتـه دائـمًا وأبـدًا، فهـو يتخـبط في الـشبهات والشهوات، فهي ظلمات بعضها فوق بعض، إذا أخرج يده لم يكد يراها، كما أنه ليس بخارج منها أبدًا، ومن لم يجعل الله له نورًا فما له من نور.

كما كان لكثير من البلاغيين والمفسرين وقفة مع تعدي الأفعال بالحروف، فذكروا أسرارها البلاغية، ونكتها البيانية، فقد وقفوا متأملين قول الله - تعالى - ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ (الأنبياء:٩)، فكان مما ذكروا في ذلك: أن السرَّ البلاغي في تعدية الفعل بـ(في) دون (اللام)، فبينوا: أن تعدية الفعل بحرف الجر (في) دلالة على مبادرة أولئك الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - في الخيرات، وأن ذلك لم يكن حالة طارئة منهم، أو كان ذلك منهم ثم انقطع، بل جاء ذلك الحرف مبينًا أنهم كانوا مداومين على المسارعة في الخيرات، مستقرين على تلك الحالة، من غير كلل ولا انقطاع، ومن هنا جاء الفعل مُعدًّى بهذا الحرف إشارة إلى هذا المعنى، ودلالة عليه، ولا عجب في ذلك؛ «فكثيرًا ما يتعدى الفعل (أسرع) بـ(في)؛ لما فيه من معنى الجد والرغبة»(٨).

كما كان للبلاغيين والمفسرين وقفة مع تعاقب الحروف بعضها مكان بعض، إذ كثيرًا ما يأتي في كلام العرب حرف، والمراد به حرف آخر، فكان هذا الأمر لافتًا للنظر، مستوجبًا - كذلك - أن

يكون له سرٌّ بلاغي، وأثر في المعنى، ومما أوردوا في ذلك قول الله – تعالى – ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ (طه:٧١)، فذكروا أن معنى (في) في هذه الآية هو: (على)، ثم ذكروا سرَّ التعاقب بين هذين الحرفين، فكان مما ذكروا في ذلك: أن المقام هو الذي اقتضى حرف الجر (في) على غيره، فهو الأبلغ في هذا السياق، كما أن هذا الحرف وحده هو الذي يحقق المعنى المراد، والغرض المقصود، وبيان ذلك: أن مجيء (في) مكان (على) دلالة على عِظم الحنق، وشدة الغيظ الذي يملأ صدر فرعون على هذه الزمرة المؤمنة؛ وذلك أن صلبهم فوق جذع النخل لا يشفي غليله، ولا يطفئ نار حقده، لذا فهو يريد من هذا الصلب بهذه الهيئة أشده وأعظمه، ذلك الصلب المتمكن، كتمكن الظرف بمظروفه، المستقر فيه الذي يحيط فيه من جميع جوانبه، كما أن فيه دلالة على رغبة فرعون في إبقاء المؤمنين زمنًا طويلاً وهم مصلوبون[٩]، ولو كان يريد مجرد الصلب لجاء الفعل مُعَدًّى بـ(على)؛ وذلك أن الصلب يكون فوق الجذع[١٠]، وليس داخله، ولكن عدو الله أراد الصلب المتمكن المحيط بهم.

وهذه وقفة مع بعض آيات القرآن الكريم أبين فيها بلاغة هذه الحروف، والأثرَ الذي تركته في الدلالة على المعنى المراد تحقيقه من خلال إمعان النظر في دلالتها، والنظر – كذلك – في السياق الذي جاءت فيه، والغرض العام المراد تقريره وتحقيقه.

يذكر – سبحانه – في بيان الحكمة من إنزال القرآن قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ (النساء:١٠٥).

في تأكيد الخبر اهتمام بشأن المنزَّل والاعتناء به[١١]، يدل على هذا الاهتمام وتلك العناية إسناد النزول إلى ضمير العظمة، وفي هذا تعظيم لأمر المسند وهو الله عز وجل، فلا يخفى ما تضمن هذا التعبير «من الإجلال والعظمة لله ما تتقاصر دونها كل عظمة ومنزلة»[١٢].

وقد جاء الفعل مُعدًّى بـ(إلى) مع الإنزال، والمتأمل في آيات حديث القرآن في بيانها لإنزال القرآن يلحظ أنها حينًا تتعدى بـ(إلى) وحينًا بـ(على) ومع تأملها وتدبر سياقها الذي جاءت فيه ندرك أن أكثر المواضع التي «ذُكر فيها إنزال القرآن على النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يكون الفعل فيها مُعَدًّى بـ(على)[١٣]، ومن أمثلة ذلك قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾ (الكهف:١)، وقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ (النحل:٨٩)، وليس هذا خاصًا في هاتين الآيتين فقط؛ بل إنّ «أكثر ما جاء ذكر إنزاله على الناس جاء مُعدًّى بـ(إلى)[١٤]، ومن أمثلة ذلك ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ (النساء:١٧٤) وقوله: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ (النحل:٤٤)، يوضح هذا ويُؤكده أن (إلى) للانتهاء إلى الشيء من

أي جهـة، والكتـب المنزلـة منتهيـةٌ إلى الأنبيـاء وإلى أمتهم جميعًا، وأما (على) فإنها مختصة بجانب الفوق، وهو مختص بالأنبياء؛ لأن الكتب منزلة عليهم، لذا فإذا ذُكر الإنزال مُعَدًّى بـ(إلى) ففيه تكليف للنبي ﷺ بإبلاغـه وبيانـه للنـاس، وإذا ذُكـر الإنزال مُعَدًّى بـ(على) ففيه تخفيف عن النبي ﷺ، وتـشريف لـه بـأن خُـصَّ بهـذا الكتـاب[١٥]، وهكـذا يكـون لحرف المعـاني – بدلالـة كل حرف – غـرض تقوم به في إعلاء شأن القرآن وبيان أهميته، دلالة على إعجاز القرآن في توظيف هذه الحروف وتطويعها؛ لإبراز مكانة القرآن، وبيان عظمته.

وقد تقدم الجار والمجرور (إليك) على المفعول (الكتاب) وفي هـذا التقديم تشريف للنبي ﷺ أي فقـد نـزل القـرآن إليـك أنـت خاصـة مـن بـين سـائر الخلق، وأنت أكملهم خلْقًا وخلُقًا[١٦].

كـما أن في هـذا التقديم تـشويقًا للسامع وتلهفًا لمعرفة هذا الذي أُنزل؛ فإن معرفة الشيء بعد ترقب وتـشوق تجعلـه يـستقر ويثبـت[١٧]، كـما في مجـيء (الكتاب) معرفة دليل على أنه الكامل الجامع لكل خـير المـشتمل عـلى المنـافع والمـصالح الدينيـة والدنيوية[١٨].

ثم بيّن – سبحانه – أن إنزال هذا الكتاب كان (بالحق) أي هـو حـق من الله لا عـوج فيـه ولا ميـل، وكلمة (بالحق) في محل نصب على الحال، وصاحب الحال هـو الكتـاب، والمعنـى: إنـا أنزلنـا هـذا الكتـاب ملتبسًا بالحق[١٩]، وقد بينتْ هذه الجملة الهيئة التي عليهـا القـرآن في نزولـه، وقـد دل عـلى هـذه الحالـة وتلك الهيئة حرف الباء في كلمة (بالحق) بما تضمن من معاني الإلصاق والملابسة ومن هذه الدلالة تتبين صفة القرآن التي نزل عليها.

ولمـا ذكـر – سـبحانه – إنـزال الكتـاب ذكـر الحكمة من ذلك في قوله: ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي أنزلنـاه إليـك لكـي تحكـم بـين النـاس، فالفعـل (لـتحكم) متعلـق بـ(أنزلنـا)، والـلام للتعليـل، فقـد بينـت الحكمـة مـن إنـزال هـذا الكتـاب، وهـي الحكـم بين الناس، وهكـذا تتضافر حـروف المعـاني في هـذه الآيـة – بـما فيهـا مـن دلالات وإيحـاءات متعـددة – لتظهِر مكانة هـذا الكتـاب العزيـز، وتُعلي من شـأنه، كـما أنهـا تبـين الحكمـة مـن إنـزال القـرآن الكـريم والغـرض منـه، وقـد احتـوى الـنظم القـرآني هـذه الحروف، ووظَّفها التوظيف اللائق بها في حديثه عن القرآن.

إذن فقـد نـزل الكتـاب مـن أجـل الحكـم بـين النـاس كلهـم، ومـن هنـا يـبرز الـسرُّ في اختبـار لفظـة (النـاس) عـلى مـا سـواها مـن الألفـاظ، فقـد جـاءت مطلقة دون تقييد، ولا مخصصة طائفة دون أخرى، بل هـو للنـاس عامـة؛ فليس هـو خاصًـا بجنس دون آخر، بل للناس أجمعين، كما يبدو هذا المعنى جليًّا في سبب نزول هذه الآية، فقد جاء في سبب نزولها: «أن رجلًا مـن الأنـصار يُقـال لـه طعمـة بـن أبـيرق سرق درعًـا مـن جارٍ لـه يُقـال لـه قتـادة بـن النعمان، وكـان الدرع في جراب في دقيق، فجعل ينتشر من خرق في

الجراب حتى انتهى إلى الدار وفيها أثر الدقيق، ثم خبأها عند رجل من اليهود، فالتُمستْ الدرع عند طعمة فلم تُوجد عنده، وحلف لهم واللهِ ما أخذها، وماله به من علم، فلما حلف تركوه، واتبعوا أثر الدقيق حتى انتهوا إلى منزل اليهودي فأخذوه، فقال: دفعها إليَّ طعمة بن أبيرق، فقالت بنو ظفر – وهم قوم طعمة –: انطلقوا بنا إلى رسول الله ﷺ، فكلموه في ذلك، وسألوه أن يجادل عن صاحبهم، وقالوا: إن لم تفعل هلك صاحبنا وافتُضح، وبرىء اليهودي، فهمَّ رسول الله أن يفعل – وكان هواه معهم –[٢٠]، وأن يعاقب اليهودي، فأنزل الله هذه الآية»[٢١]، ومن معرفة سبب نزولها يظهر السر في اختيار هذه اللفظة (الناس) فقد جاءت هذه اللفظة لتدل على عموم طبيعة الدعوة المحمدية فإنها للخلق كافة.

ثم أمر – سبحانه – رسوله محمدًا ﷺ أن يكون حكمه في الناس بما أوحى الله إليه وشرعه في قوله: ﴿بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ والباء في قوله: ﴿بِمَآ﴾ للآلة، جعل ما أراه الله إياه بمنزلة آلة الحكم؛ لأنه وسيلة إلى مصادقة العدل، ونفي الجور»[٢٢].

والرؤية هنا عرفانية، وسُمي ذلك العلم الذي علمه الله رؤية؛ لأن العلم اليقيني المبرأ من الريب والخطأ يكون جاريًا مجرى الرؤية في القوة والظهور؛ لما فيه من الجلاء والوضوح فكأنه يراه بعينه[٢٣].

ولما بيّن – سبحانه – حكمة إنزال الكتاب عقَّب على ذلك بقوله: ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ وهو نهي يتوافق مع حكمة إنزال هذا الكتاب؛ وذلك أن المخاصمة عن الخائنين أو المدافعة عنهم مناقضة لهذه الحكمة، وقد تقدم الجار والمجرور (للخائنين) على خبر تكن (خصيمًا) وفي هذا التقديم زيادة اهتمام بهذا النهي وتعظيمه، وتعظيم لشأن الخيانة، وجرم الخائنين، فكأن النهي منصب على الخائنين بألّا يعيرهم انتباهه، وألَّا يأخذوا شيئًا من وقته، ولا يلتفت إليهم أبدا، بلْهَ أن يكون مخاصمًا عنهم، وذائدًا عن حماهم.

واللام في (الخائنين) «للتعليل أي لا تكن لأجلهم، وقيل هي بمعنى (عن) أي لا تكن عنهم»[٢٤]، ومهما كان معناها فإن هذا الحرف أو ذاك ليحمل في طياته التغليظ الشديد أن يكون من أجل خائن، أو عن خائن مخاصمًا ومدافعًا، يدل على هذه الغلظة، وتلك الشدة أسلوب الآية الجزل بما فيها من صرامة وجزم «فإننا نحس في التعبير صرامة يفوح منها الغضب للحق، والغيرة على العدل»[٢٥].

وفي موضع آخر يخبر – سبحانه – أنه أنزل الكتاب بأشرف اللغات وأفصحها، مبينًا الحكمة من إنزاله قائلًا: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ (طه: ١١٣-١١٤).

أي أنزلنا القرآن بعظمتنا وقدرتنا، يدل على ذلك إسناد الإنزال إلى ضمير العظمة، وقد جاء إضمار

القرآن هنا من غير سبق ذكر له وهذا دليل على أن القرآن حاضر في الأذهان، قريب من القلوب عالق بها، فهو لايحتاج إلى ما يلفت إليه، ويذكِّر به[٢٦].

وفي هذه الصيغة (أنزلناه) – بدلالة همزة التعدية – دليل على أن القرآن لم يكن يختلقه محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من عند نفسه كما يزعم ذلك كفار قريش، فمجيئه بهذه الصيغة رد على مزاعمهم الباطلة، ودحض لشبههم، وقد أظهر هذا المعنى وأبرزه همزة التعدية، ومن هنا تبرز بلاغة القرآن في توظيفه حروف المعاني في بيان حقيقة القرآن، وإعلاء شأنه، وقد جاء الاسم (قرآنًا) مصدرًا، والمراد به اسم المفعول أي المقروء، وفي تسميته بالمصدر مزيد حفاوة بهذا المنزَّل، وقد جاءت لفظة (قرآنًا) نكرة؛ «وذلك لإفادة الكمال أي أكمل ما يُقرأ»[٢٧].

ثم ذكر – سبحانه – في قوله (عربيًّا) أنه أنزل القرآن بهذه اللغة الشريفة؛ وذلك لتفهمه العرب، وتفقه معانيه، ولتقف على إعجازه ونظمه؛ ليكون ذلك أبلغ في الحجة والإعجاز[٢٨]، كما أن فيه «تعريضًا بالامتنان على العرب، وتحميقًا للمشركين حيث أعرضوا عنه وكذبوا به»[٢٩]، مع كونه نازلًا بلغتهم التي بها يتخاطبون، وبها يفخرون ويشرفون على القبائل كلها.

* * *

الهوامش:

(١) بيان إعجاز القرآن: ٣٣.

(٢) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ١٨٦/٢.

(٣) وهما: الدكتور محمود حسني محمد، والدكتور محمد حسن عواد.

(٤) نظرية الحروف العاملة مبناها وطبيعة استعمالها القرآني بلاغيا: ٥ د. هادي عطية الهلالي.

(٥) حروف المعاني وعلاقتها بالحكم الشرعي: ٢٠٠، د. دياب عبدالجواد عطا، دار المنار.

(٦) من ذلك: كتاب حروف المعاني وعلاقتها بالحكم الشرعي، د. دياب عبد الجواد عطا، وكتاب حروف المعاني بين دقائق النحو ولطائف الفقه، د. محمود سعد، وغيرهما.

(٧) انظر: الطراز: ٥٣/٢، للعلوي.

(٨) انظر: روح المعاني: ٨٧/١٧.

(٩) انظر: إرشاد العقل السليم: ٢٩/٦، لأبي السعود.

(١٠) انظر: تفسير التحرير والتنوير: ٢٦٥/١٦، للطاهر بن عاشور.

(١١) انظر: روح المعاني: ١٠٤/٥، للآلوسي.

(١٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ٣٧٨/٥، البرهان الدين البقاعي.

(١٣) من أسرار التعبير القرآني: حروف المعاني: ١٠٥، د. عبد الفتاح لاشين.

(١٤) المصدر السابق: ١٠٥.

(١٥) انظر: بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: ٤٠٦/١.

(١٦) انظر: نظم الدرر: ٣٨٧/٥.

(١٧) انظر: روح المعاني: ١٤٠/٥.

(١٨) انظر: نظم الدرر: ٣٨٧/٥.

(١٩) انظر: الدر المصون: ٤٢٣/٢.

(٢٠) هكذا وردت (وكان هواه معهم) وفي النفس منها شيء، إذ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منزه عن هذا، كيف وقد عصمه ربه، كما أن في هذه العبارة شيئًا من ترك الأدب مع رسول الله ﷺ.

(٢١) أسباب النزول: ١٠٣، لأبي ا لحسن علي بن أحمد الواحدي.

(٢٢) التحرير والتنوير: ١٩٣/٥.

(٢٣) انظر: تفسير المنار: ٣٩٤/٥.

(٢٤) روح المعاني: ١٤٠/٥.

(٢٥) في ظلال القرآن: ٧٥٤/٢.

(٢٦) انظر: روح المعاني: ٢٦٧/١٦.

(٢٧) التحرير والتنوير: ٣١٤/١٦.

(٢٨) انظر: التفسير الكبير: ١٢١/٢٢.

(٢٩) التحرير والتنوير: ٣١٤/١٦.

* * *

أدب الرحلة في العصور القديمة

بقلم: الأستاذ/ محمد نوشاد النوري القاسمي (*)

مر أدب الرحلة بثلاثة عصور: العصر القديم والعصر الوسيط والعصر الحديث.

العصر القديم:

أما العصر القديم فيراد به الفترة الممتدة منذ أقدم العصور إلى القرن الثالث الهجري، الموافق للقرن التاسع الميلادي، و من المعلوم أن الرحلات لها اتصال مباشر بتاريخ الإنسان، فالإنسان منذ أقدم عصوره ظل يرحل ويسافر ويغترب لسبب من الأسباب العلمية والاقتصادية والتجارية والسياسية والدعوية، وما إليها، كما أن من الأمور الفطرية بيان ما يراه الناس ويشاهدونه في بلاد الاغتراب، ويشعرون به، واستماع الناس إلى هذه الأمور الغريبة العجيبة بشوق ولهف، وهذا ما يمكن أن نسميه بـ«أدب الرحلة الشفوي»، وهو ما زال يساير الرحلات البشرية منذ أقدم العصور بحكم الطبع والعقل.

أما أدب الرحلة المكتوب المدون، فبدايته مجهولة، وليس بإمكان البشر اليوم تحديد أول كتاب دُوِّن في أدب الرحلة على الإطلاق، فإن تراث أدب الرحلة المتواجد بأيدينا لم يظهر إلا بعد قرون متطاولة من خلق البشر.

نعم! قد ذكر الأدباء والنقاد والمؤرخون أول كتاب اطلعوا وتعرفوا عليه في حقل أدب الرحلة، وهو ما كتبه المصنف الإغريقي «هيرودوت» (Hero Dotus) قبل ميلاد المسيح عليه السلام بقرون، وكان سائحا متنقلا في بلاد مصر وقبرص وفينيقيا وآشور وإيران؛ بل متوغلا في الشمال إلى البوسفور، ووفق في تدوين مشاهداته أثناء رحلاته في تاريخه الكبير(١).

والكتاب الثاني الذي يعد ثاني الكتب المدونة في أدب الرحلة هو كتاب INDICA «سفرنامه هند» للرحالة الإغريقي «ميگس تهنيز»، وكانت رحلاته كما يقال – قبل ميلاد المسيح عليه السلام بثلاث مئة وثلاثين سنة، وهذا الكتاب حري بأن يُعَدَّ من الكتب الوثائقية الموثوق بها في تاريخ الهند وثقافتها في عصره.

ثم يأتي بطليموس الإسكندري في القرن الثاني الميلادي، وكان رحالة كبيرًا، ودوَّن كتابه بشكل

(*) باحث الدكتوراه، قسم اللغة العربية، جامعة دهلي، الهند، ومساعد تحرير مجلة وحدة الأمة، ديوبند.
البريد الإلكتروني: naushadnoori1985@gmail.com

مفصل، يقول الدكتور شوقي ضيف: «ونلتقي في القرن الثاني الميلادي ببطليموس الإسكندري، وهو إغريقي الأصل، وقد ترك كتابين في الجغرافية والفلك، ونراه يدون وصفا مفصلا للبلدان والأماكن في عصره، ذاكرا أطوالها وعروضها، مبينا بالرسم مواقعها»(٢).

وجاء في القرن السابع الميلادي الرحالة الصيني «هيون سانگ»، الذي قضى من عمره الفترة الممتدة من ٦٣٠م إلى ٦٤٥م في الهند، وطاف في أرجاء الهند، ثم دون مشاهداته في كتابه(٣).

نَشأة أدب الرحلة في التراث العربي:

وأما نشأة أدب الرحلة في التراث العربي فنجد العرب أكثر الأمم تنقلا وارتحالا، وأشغفهم بالسفر والترحال، وذلك لخصائص جغرافية وظروف سياسية وحاجات اقتصادية وشعائر دينية، يقول الدكتور شوقي ضيف: «ثم جاء دور العرب، وفتحوا الأرض من الهند والصين إلى المحيط الأطلسي وجبال البرانس، ومن التركستان وجبال القوقاز إلى السودان، وأصبح كل ذلك عالما واحدا مشتركا في الدين والثقافة ... وكان من أهم الأسباب في تدوين هذه الرحلات حاجة الدولة إلى معرفة الطرق الكبرى التي تصل أقاليمها، ومن ثم ألفت كتب كثيرة في وصف المسالك والممالك، وهذه الحاجة السياسية اقترنت بها حاجة دينية، إذ كان الحج إلى مكة فريضة على كل مسلم، وكان المسلمون يتجشمون راضين كل مشقة في سبيل أداء هذه الفريضة وزيارة قبر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المدينة... وبجانب ذلك كان التجار يضربون في أراض جديدة عن طريق القوافل وعن طريق البحر وسفنه، وقد وصلوا في مغامراتهم إلى الصين والهند، وشواطئ إفريقية الشرقية والغربية جنوبي خط الاستواء، واستطاعوا أن ينشروا الإسلام في أندونيسيا وغيرها من الجزائر الهندية النائية... ولهذه الأسباب مجتمعة كثرت الرحلات عند العرب، وتنوعت بتنوع أسبابها وحوافزها السياسية والدينية والاقتصادية، ونشأت عند كثيرين منهم محبة المجازفة فيما وراء المعروف؛ حتى ليظن أن منهم من وصل إلى أمريكا قبل أن يكتشفها كولمبوس»(٤).

أما كتابة الرحلة في التراث العربي فنجد شعراء الجاهلية يذكرون رحلاتهم وأسفارهم، ويبين الشاعر الرحالة في أبياته بعض المعلومات الثقافية، ويُظهر مشاعر تختلج في قلبه بمشاهداته في أثناء الرحلة، فأدب الرحلة في هذه المرحلة شيء مبثوث في عدد من القصائد، غير مدون في مكان واحد.

ومن المناسب أن نرى الكتب الحديثية وما جاء فيها من ذكر رحلات وأسفار أول شيء مدون في أدب الرحلة، وصدق الأستاذ رضي الدين القاسمي عند ما قال: «وأجدر أن يعد في أدب الرحلة ما روي في كتب الأحاديث عن هجرة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المدينة المنورة، وهجرة أصحابه عليه الصلاة والسلام إلى الحبشة، وبعثاته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الملوك والسلاطين؛ لأن المرويات عن هذه تكشف

لنا المعلومات الثقافية والجغرافية والدينية وغيرها.

ثم ذكر الأستاذ بعض نماذج رائعة لأدب الرحلة قائلا: «ومن أدب الرحلة في فجر الإسلام ما روي عن تميم الداري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو والي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أرض بالقرب من الخليل أحد أقاليم فلسطين، ويتحدث تميم عن رحلة له ببحر الشام، حيث قذفت به عاصفة هو وصحبه إلى جزيرة مهجورة، رأوا فيها رأي العين المسيح الدجال»(٥).

ومن النماذج الأمثل لأدب الرحلة في الحديث النبوي ما أخرجه الشيخان في قصة موسى والخضر عليهما السلام، فهذا الحديث يمثل نموذجا جميلا لأدب الرحلة، فقد اشتمل هذا الحديث على تصوير رائع في الرحلة، ومنه «فلما استيقظ موسى عليه السلام نسي غلامه أن يخبره أن الحوت قفز في الماء، فانطلقا بقية يومهما وليلتهما، فلما كانا من الغد قال موسى لفتاه: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ [الكهف:٦٢]، تذكر الفتى أن الحوت المشوي الذي كانا سيتغديان به قفز في الماء، قال: ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ [الكهف:٦٣] ﴿فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ [الكهف:٦٤] رجعا يقصان الآثار مرة أخرى.

فلما ذهبا إلى ذلك المكان وجدا عبدًا مسجى ببردة خضراء تحت قدميه وتحت رأسه، كالذي يلتحف بلحاف فيجعله تحت رأسه وتحت قدميه، فسلم عليه موسى، فكشف عن وجهه، وقال: وهل بأرضي سلام؟ من أنت؟ قال: أنا موسى.

قال: أنت موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم، قال: وما تريد؟ قال: أريد أن أتعلم»(٦).

إن هناك كثيرًا من النماذج الحديثية الرائعة، التي من حقها أن تعتبر إرهاصات أولية لفن أدب الرحلة، وفي هذه الصورة نشأ هذا الفن.

أدب الرحلة في العصر الوسيط:

وهو يبدأ من القرن الثالث الهجري الموافق للقرن التاسع الميلادي إلى بداية النهضة العربية الحديثية، التي تتحدد في الغالب بالاحتلال الفرنسي لمصر عام ١٧٩٨م، والعصر الوسيط أزهى عصور أدب الرحلة، ففي هذا العصر نشأ نضج وازدهار في الأدب العربي بشكل عام، وفي أدب الرحلات بشكل خاص، وكان للمسلمين في هذا العصر رحلات وانطلاقات فاقت التصور، وتجاوزت الآمال، وأثبتت ريادة المسلمين حتى في السياحات والتنقلات.

كتب أدب الرحلات في العصر الوسيط قرنًا بعد قرن:

كتب القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي):

- كتاب الأقاليم، وكتاب البلدان الكبير، وكتاب البلدان الصغير، وكتاب أنساب البلدان؛ كلها للُّغوي المؤرخ هشام ابن الكلبي(٢٠٤هـ)، وكان مؤرخًا، وعالما بالأنساب وأخبار العرب وأيامها ووقائعها ومثالبها، وله مؤلفات كثيرة.

- سلسلة التواريخ لسليمان التاجر، قد قام

برحلات تجارية عديدة عبر المحيط الهندي والمحيط الهادي إلي بلاد الهند والصين، وكان يقوم باستيراد المصنوعات والمنتوجات الهندية والصينية إلى الديار العربية، ليبيعها بأرباح، وقد ربحت تجارته كثيرا.

كتب القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي):

- مروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودي (٢٨٣-٣٤٦هـ/٨٩٦-٩٥٧م) كان مؤرخًا، جغرافيا ورائد نظرية الانحراف الوراثي ومن أشهر العلماء العرب حتى عرف بهيرودوتس العرب.

- رحلة ابن فضلان لأحمد بن فضلان، وكان ابن فضلان سفير الخليفة العباسي المقتدر بالله إلى ملك البلغار، ورئيس البعثة العلمية التي بعثها الخليفة إلى بلغاريا عام سنة ٣٠٩هـ/٩٢١م بعثة، جعل رياستها لابن فضلان. فقام بمهمته بشكل جيّد.

- صور الأقاليم لأحمد بن سهل أبو زيد البلخي(٢٣٥-٣٢٢هـ/٨٤٩-٩٣٤م)

- كتاب البلدان: لقدامة بن جعفر (٨٧٣م – ٩٤٨م)، وهو كاتب من البلغاء الفصحاء المتقدمين المبرزين في علم المنطق والفلسفة، كان في أيام المكتفي باللَّه الخليفة العباسي، وأسلم على يده، وتوفي ببغداد. يضرب به المثل في البلاغة.

- كتاب المسالك والممالك، وكتاب صورة الأرض: لمحمد أبو القاسم بن حوقل (ت٣٦٧هـ /٩٧٧م)، وهو تاجر ورحالة، من كبار علماء البلدان.

- عجائب البلدان: لمسعر بن مهلهل أبي دلف (ت٣٩٠هـ/١٠٠٠م)، وهو شاعر رحالة، كثير الملَح، تجاوز التسعين من عمره متنقلا في البلاد.

كتب القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي):

شهد هذا القرن تطورا باهرا في أدب الرحلة، حيث برز كبار الرحالين والجغرافيين في العالم الإسلامي، ووقفوا أعمارهم في جوب البلاد والبحث عن خصائص البلدان، والسير في أرض الله والتأمل في خلق الله. ومن أهم كتب هذا القرن في أدب الرحلة ما يلي:

- تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة لأبي ريحان البيروني (٢٦٢–٤٤٠هـ/٩٧٣م – ١٠٤٧م) من كبار الفلاسفة والرياضيين والمؤرخين.

- نظام المرجان في المسالك والممالك لأحمد بن عمر العذري (٣٩٣– ٤٧٨هـ/١٠٠٣م–١٠٨٥م)

- كتاب المسالك والممالك، وكتاب معجم ما استعجم من أسماء الأماكن والبقاع لأكبر رحالة الأندلس في هذا القرن أبو عبيد عبد الله البكري (٤٨٧هـ).

كتب القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي):

وهو عصر زاخر بالإنتاجات البكر والإنجازات التأليفية الرائعة في أدب الرحلة، ومن أهم آثار هذا القرن:

- تحفة الألباب ونخبة الأعجاب وكتاب

نخبة الأذهان في عجائب البلدان، وكتاب المغرب عن بعض عجائب المغرب لأبي حامد ابن أبي الربيع الأندلسي(٤٧٣-٥٦٥هـ/١٠٨٠م-١١٧٠م).

- نزهة المشتاق في اختراق الآفاق للشريف الإدريسي (٤٩٣-٥٦٠هـ) من كبار علماء التاريخ والجغرافيا، وهو الذي وضع أولًا خرائط العالم المسكون آنذاك، وبرع في ذلك حتى اعترف بفضله علماء الغرب، يقول الزركلي في كتابه: «وهو أصح كتاب ألفه العرب في وصف بلاد أوربة وإيطالية، وكل من كتب عن الغرب من علماء العرب أخذ عنه»(٧).

- ترتيب الرحلات لأبي بكر العربي (ت٥٤٣هـ) وهو الذي استخدم أولا لفظ «رحلة» في عنوان كتاب.

- رحلة ابن جبير (تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار) لأبي الحسن محمد بن أحمد بن جبير الكناني (ت٦١٤هـ)، ولا شك أن محمد بن جبير كان كاتبا بارزا في أدب الرحلة، وعلى يديه اكتملت ملامح فنية أساسية لأدب الرحلة العربي؛ فإنه دون مذكراته ومشاهداته يوميا بصدق وأمانة، متجنبا ذكر الغرائب والعجائب التي يميل غيره إليها.

- الاعتبار للأمير المجاهد أسامة بن المنقذ (ت٥٨٤هـ)، كان الشيخ شغوفًا بالسير والترحال، حتى أمضى كل عمره في السفر والحرب، وقد عمره الله، حتى نيف على التسعين، كان صديقا للقائد العظيم صلاح الدين الأيوبي.

كتب القرن السابع الهجري

(الثالث عشر الميلادي):

من أهم إنجازات هذا القرن فيما يتعلق بأدب الرحلة:

- معجم البلدان (٧ مجلدات ضخمة) للعلامة الأديب ياقوت الحموي (ت٦٢٦هـ) هذا الكتاب منقطع النظير، ولا يزال يُعدُّ من أهم المعاجم الجغرافية.

- تاريخ المستبصر ليوسف بن يعقوب الدمشقي الشهير بابن المجاور (ت٥٦٩هـ)

- الرحلة المغربية لمحمد العبدري، هذا الكتاب اشتمل على أدق وصف لبلاد الشمال الإفريقي.

كتب القرن الثامن الهجري

(الرابع عشر الميلادي):

من أهم كتابات أدب الرحلة في هذا القرن:

- المختصر في أخبار البشر لإسماعيل أبي الفداء (٦٧٢-٧٣٢هـ/١٢٧٣م-١٣٣١م)، هذا الكتاب موسوعة تاريخية، يشتمل على تاريخ العالم منذ بدء الخلق حتى عام ١٣٣١م، وهو العام الذي توفي فيه المؤلف. وشهد المؤرخون عن صدق بأن أبا الفداء كان رجل دولة ومؤرخًا وجغرافيًا وراعيًا للحياة الفكرية في مدينة حماة السورية.

- تقويم البلدان لأبي الفداء (ت٧٣٢هـ)، وسمي بجغرافيا أبي الفداء، وظل الكتابان لأبي الفداء موضع اهتمام الشرقيين والغربيين.

- تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، المعروف ب«رحلة ابن بطوطة» لأبي عبدالله اللواتي الطنجي المعروف بابن بطوطه، يعد كتابه هذا أكثر كتب الرحلة شهرةً وانتشارًا؛ بل ذروة أدب الرحلة العربي إمتاعًا وجاذبيةً، إضافة إلى كم هائل وقدر كبير من المواد الجغرافية والأدبية والقصصية والعادات والأخلاق والأعراف لدى الأمم التي جال فيها ابن بطوطة، ومازال ابن بطوطه علمًا من أعلام أدب الرحلة، ومنارة من منارات هذا الصنف الأدبي.

- التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا لعبد الرحمن بن خلدون (٧٣٢-٨٠٨هـ/١٣٣٢م-١٤٠٦م)، والكتاب في الحقيقة سيرة ذاتية للشيخ ابن خلدون؛ إلا أنه في ثنايا شخصه يركز كثيرًا على ما قام به من رحلات وانطلاقات، واستفاد منها من تجارب وخبرات، وجاء الكتاب بسعة معلوماته وجزالة ألفاظه كالدرر السنية في سلك منتظم، ومرجعا هاما في أدب الرحلة.

القرون إلى بداية النهضة العربية

(من القرن التاسع للهجرة إلى بداية النهضة العربية):

إن أدب الرحلات العربي اضمحل أمره، وذهب نشاطه في هذه القرون، فلم يكن لأدب الرحلة ذلك النشاط وتلك الحرارة، فقلَّت الرحلات العربية، وذلك راجع إلى التراجع الشامل في مجالات السياسة والعلم والاقتصاد والاجتماع؛ بل بلغت أوضاعُ العرب حضيض الانهيار والتردي، وانحطوا من أوج المجد إلى هوة الذل.

فلا يوجد في هذا العصر الرحالون العالميون إلا قليلًا، وكان من أشهرهم عبد الغني النابلسي (ت ١١٤٣/١٧٣١م) من فقهاء الحنفية في دمشق، وكان له يد طولى في البلاغة وقدرة عجيبة على الشعر والنثر، إلى إلمامه اللائق بالعلوم الدينية. فقد ألف الشيخ كتابا، دون فيه رحلاته في الحج، وسماه بـ«الرحلة الحجازية»، هناك عدد من الرحالين العرب، ولهم إسهامات في أدب الرحلة(٨)

* * *

الهوامش:

(١) شوقي ضيف الرحلات، ص١٠.

(٢) شوقي ضيف الرحلات، ص١٠.

(٣) انظر: محمد رضي الرحمان القاسمي، الرحلة وأدبها في اللغة العربية: دراسة تاريخية، مجلة الداعي، أبريل – يونيو، ٢٠١٣م، العدد٦-٧، السنة٣٧.

(٤) شوقي ضيف، الرحلات، ص٨-٩.

(٥) محمد رضي الرحمان القاسمي، الرحلة وأدبها في اللغة العربية: دراسة تاريخية، مجلة الداعي، أبريل – يونيو، ٢٠١٣م، العدد٦-٧، السنة٣٧.

(٦) محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري،(القاهرة: دار طوق النجاة، ط١، ١٤٢٢ه)رقم الحديث: ٤٧٢٧.

(٧) الزركلي، الأعلام، ج٧، ص٢٤.

(٨) انظر: زكي محمد حسن، الرحالة المسلمون في العصور الوسطي، (مصر: موسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ٢٠١٢م)، والأستاذ محمد رضي الرحمان القاسمي، الرحلة وأدبها في اللغة العربية: دراسة تاريخية، مجلة الداعي، أبريل – يونيو، ٢٠١٣م، العدد٦-٧، السنة٣٧. وفؤاد قنديل، أدب الرحلة في التراث العربي، القاهرة: مكتبة الدار العربية للكتاب، ط١، ٢٠٠٢م.

بقية إشراقة: المنشورة على ص ٥٦

وصولة وجولة، وصيت و سمعة، ولن يذهب مهب الريح ﴿قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾ [الكهف:٣٥].

لقد أصابت العين في الإسلام هذه البلاد الشاسعة التي كان المسلمون ملوكها وسلاطينها وأصحاب الكلمة المسموعة والسلطة النافذة فيها:

بالأمس كانوا ملوكًا في منازلهم
واليومَ هم في بلاد الكفر عبدانُ

ثم

أصابها العين في الإسلام فارتزأت
حتى خلت منه أقطار وبلدان

وقال الشاعر:

لقد كان في بحبوحة من حياته
وحِرز عن الفقر المهين منيع
يمر فيغضي الناظرون مهابة
وإن هو حيا أومؤوا بركوع

تجوس خلال الديار الهندية، وتضرب في أطرافها، و أغوارها وأنجادها، فتجد مدنًا وقرى وأريافًا عامرةً في ماضيها غامرةً في حالها، وهي خاوية على عروشها و قد خر عليها السقف من فوقها، فلاتجد فيها حسًّا ولا نأمة، و رائحة الخراب والدمار تفوح في جنباتها، والصمت الرهيب يلتحف المكان ويحاصره من كل جانب. فهل تصور أولئك القوم مصيرهم هذا ؟ وأ ليس فيه لنا وللناس جميعًا عبرة وعظة؟ هل فكر الإنسان المغتر بسلطته وملكه وجبروته وثروته وماله وما أوتيه من رفاهية العيش- في مصير ملوك اليمن ذوي التيجان، وفي مصير شداد وساسان وقارون وعاد وقحطان؟.

أين الملوك ذوو التِّيجان من يمن
وأين منهم أكاليلٌ وتيجان
وأين ما شاده شدّاد في إرمٍ
وأين ما ساسه في الفرس ساسان
وأين ما حازه قارونُ من ذهب
وأين عادٌ وشدَّاد وقحطان
أتى على الكلّ أمرٌ لا مردَّ له
حتى قضوا فكأن القومَ ما كانوا

قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ

مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الروم:٩]. وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر:٤٤].

فاسألوا دهلي ما شأن لكناؤ؟ وأين حيدر آباد أم أين سرهند؟ وأين شيراز الهند – جونفور–؟ فكم عالم قد سما فيها له شأن؟! وأين دهلي وما تحويه من نزه وحدائق باسقات وأنهار عذبة فياضة وملآنة؟ وأين و أين....؟

قواعد كنّ أركان البلاد فما
عسى البقاءُ إذا لم تبقَ أركان
تبكي الحنيفيّة البيضاء من أسف
كما بكى لفراق الإلف هيمان
على ديار من الإسلام خالية
قد أقفرتْ ولها بالكفر عمران

إننا أيها السادة، نسينا حق الله تعالى وتركناه فأنسانا الله تعالى حظوظ أنفسنا، وأعرضنا عن أحكامه و توجيهاته فصرف عنا رحمته ونصره وعونه.

فيا قومي، عودوا إلى رشدكم، وانظروا في سلوككم من جديد، وامتثلوا أوامر دينكم وانتهوا نواهيه، و اخضعوا لقوانينه ومبادئه في العبادات والمعاملات والأخلاق على حد سواء، ولاتكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءتهم البينات، فدالت الأيام عليهم، وذهبت ريحهم، فلا ثبات لدينكم بالمزامير ولا بالمسامير، و إنما ثباته وبقاؤه بالانقياد التام لله تعالى، والعمل بفضائله وحقائقه.

فهلم يا عباد الله، إلى محاسبة النفوس قبل تطاير الصحف والكتب، فواقعة في اليمن أو الشمال، و قبل معاينة اليوم العبوس القمطرير يوم يعض الظالم على يديه يقول: ياليتني اتخذت مع الرسول سبيلا. وإياكم والأماني على الله تعالى، فما أكثر من غرته الأماني وضرته وأوبقته وأردته؟! فإن «الكيِّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت؛ والأحمق من أتْبَعَ نفسه هواها، وتَمَنَّى على الله الأماني».

لقد تمنى على الله قوم أماني، ولم يأخذوا بأوامره ولم ينتهوا عما نهاهم عنه، فكانوا غثاء كغثاء السيل، وأضيع من تراب في مهب الريح، ومن لحم على وضم، ومن دلو بلا وذم.

مرةً عيشٌ ومرةً جيشٌ

السائح في مشارق الهند ومغاربها يرى العجب العجاب، وأعجب من العجب مما تحتضنه هذه البلاد الشاسعة الأكناف المترامية الأطراف، من الآثار الإسلامية من مساجد ومقابر وبيمارستانات ومشافٍ وشوارع و قلاع أقامها المسلمون في هذه البلاد، والتي ما زالت محفورة في جبين تاريخها، وكاد أن يأكل- أو قد أكل على كثير منها الدهر وشرب. وبقي منها ما قدر الله تعالى له البقاء ليومنا هذا بصائر للناس وشاهدًا بما أضفى على هذه البلاد المسلمون من رقي وازدهار، وتطور ونمو، وثقافة ومُثل، حتى عادت عصفورًا من ذهب كما يقول المثل الشائع. ثم دالت الأيام عليهم وفق سنة الله تعالى، فإنه سبحانه يقول: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران:١٤٠]. ونعم ما قال الشاعر الأندلسي أبو البقاء صالح بن شريف الرندي المتوفى سنة ٧٩٨ هـ في مرثيته التي سارت مسير الشمس والقمر وطار بها الركبان:

هي الأمور كما شاهدتها دول ... منْ سرّه زمنٌ ساءتـهُ أزمان

وهذه الدّار لا تبقي على أحد ... ولا يدوم على حالٍ لها شان

فجعل الله تعالى هذه الأيام دولة، يومًا لهذا ويومًا لغيره، مرةً عيشًا ومرةً جيشًا.

يا أيّها النّاس إنّ الدّهر ذو دول ... يحلو قليـلا ويأتي بالمـرارات

لا تسرفوا إن رزقتم فيه مقدرة ... واخشوا تقلّب أيّام وساعات

يعيش الإنسان في السراء، وقد أحدقت به النعم، فيظن كل الظن أن ما هو فيه من بحبوحة العيش ورغـد الحياة لن يزول أبـدًا، ولن تتطرق يد الفناء والخـراب إلى ما له من قوة وشوكة،

(البقية على ص٥٤)

أبو عائض القاسمي المباركفوري